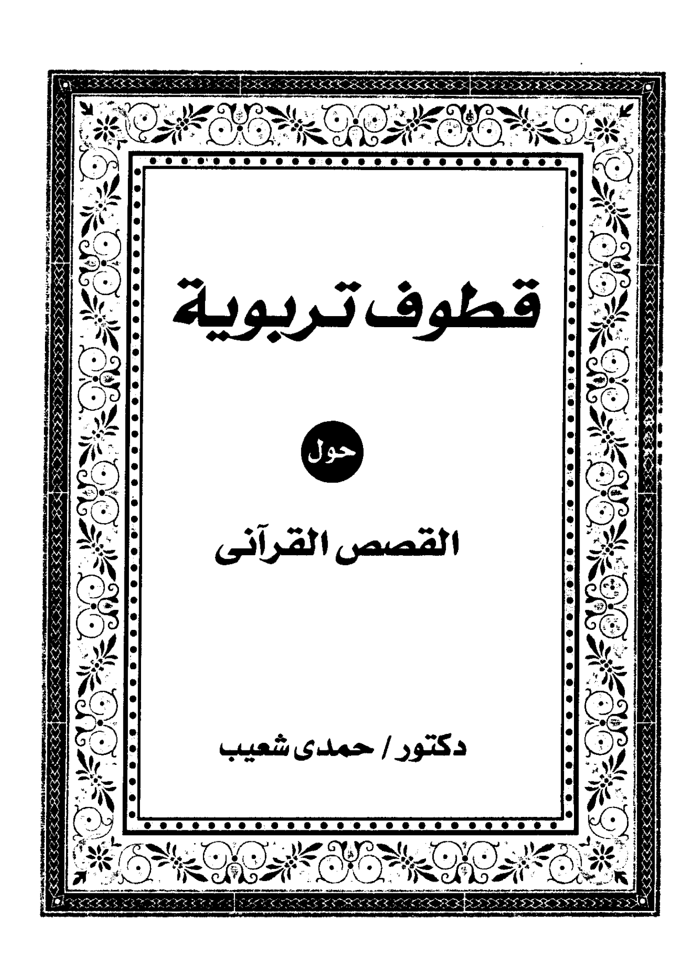

قطوف تربوية
حول
القصص القرآنى
دكتور / حمدى شعيب

1422 هـ ـ 2002 م

* الكتـــاب : **قطوف تربوية حول القصص القرآنى**
* الكــاتــب : **د . حمدى شعيب**
* الطبــعــة : الأولـى **2002.**
* النـاشـــر : **دار البشير للثقافة والعلوم ـ طنطا .**
* التــوزيع : **دار البشير للثقافة والعلوم ـ طنطا .**

تليفاكس : **3305538 ـ 3321744 / 040**

☎ **3316316 / 040**

* التجهيز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية ـ المحلة الكبرى

تليفاكس : **2120277 / 040**

* الإيداع القانونى : **14062 / 2001**
* الترقيم الدولى : **I. S. B. N 977 - 278 - 195 - 5**

Web Site :www.Dar elbasheer.com.eg

E-mail / Dae_elbasheer@hotmail.com.

Dae_elbasheer@maktob.com.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه . . .

وبعد :

عرفت الأخ الكريم الدكتور (حمدى شعيب) من خلال كتاباته فى مجلة المجتمع الكويتية .

استوقفنى أسلوبه المميز ، وموضوعاته الملفتة ، وأفكاره المتقدمة ، قوّاه الله ، ووفقه إلى كل خير . .

كانت أولى قراءاتى له : دراسة عنوانها (قطوف تربوية حول قصة (أصحاب الكهف ـ (معالم منهجية للتغيير الحضارى) ، حيث أفصحت عن ذلك ، وأشرت إليه فى مقالتى التى نشرتها مجلة المجتمع بعد ذلك ، تحت عنوان (العواصم الشرعية من القواصم التنظيمية) . . والتى قلت فيها : (. . وفى هذا الإطار أودّ أن أنقل ما كتبه الدكتور (حمدى شعيب) فى مجلة (المجتمع) الكويتية على مدى سبع حلقات ، تحت عنوان (القيادة . . والمختلفون) ما يؤيد هذا التصور ، حيث

يشير إلى دور القيادة الواعية والتى تعتبر الركيزة الأهم ، والميزان الذى بصلاحه ينتظم المجموع ، ويكون التوازن الحركى والتربوى . . بين تعميق الأصول ، وتوضيح الفروع ، وبين المحافظة على الثوابت والمفاضلة بين المتغيرات . . وبحكمها يتم التوفيق بين الأطراف والفئات ، فتتجمع حولها ومعها ، ويدور الجميع مع الحق حيث دار .

ثم يتابع فيقول : (. . ولنتأمل مغزى تلك التوجيهات التى تبنى القيادة الربانية ، ثم الصف من بعدها) .

ولا أبالغ حين أقول : إن الساحة الإسلامية اليوم بأمسّ الحاجة إلى هذا النمط من الكتابات التربوية المسدّدة بالسنن الإلهية المستنيرة بالهدى القرآنى والسلوك النبوى .

من هنا جئت لأقدم وبكل تقدير ومحبة واحترام إلى قُرَّاء العربية على امتداد العالم باكُورة أعمَال الأخ الكَريم الدكتور (حمدى شعيب) : الجزء الأول من سلسلة (قطوف تربوية من القصص القرآنى) سائلا الله تعالى أن يتقبلها بقبول حسن ، وأن يجعل أثرها التربوى على الساحة الإسلامية كبيراً ، وأن يدخرها فى ميزان حسناته يوم القيامة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . فتحى يكن

• قطوف تربوية حول قصة صاحب الجنتين •

صراع الفكرة والمادة

وهى القصة التى وردت فى سورة الكهف فى الآيات من (32) إلى (46) .

وهى تحكى عن نموذجين بشريين حقيقيين :

النموذج البشرى الأول ، يمثل نوعية بشرية ، أو شريحة إجتماعية ، تملك الثراء الواسع ، والثروة الفاحشة ، خاصة عندما يجتمع معها البطر والخيلاء ، ونسيان القوة المدبرة التى تحرك الأحداث ، وتسيطر على مقادير الناس والحياة ، فتطغى بالجاه والملك والثروة وتنسى دورها الإعمارى الإستخلافى فى الأرض ، وترفض مبدأ التعايش مع الطوائف والشرائح الإجتماعية الأخرى ، وذلك بأساليب إستقصائية ، وتبلغ ذروة طغيانها عندما تفقد الميزان والضابط ، عندما تنسى الآخرة .

والنموذج البشرى الآخر ، يمثل نوعية بشرية ، أو شريحة إجتماعية معينة ، تعتز بقيمتها البشرية من حيث دورها الموكول بإعمار الأرض ، وتملك من الرصيد الإيمانى ، والقيم السامية ، والمبادئ الراقية . ما يجعلها معتزة بإيمانها ، ذاكرة لربها ، فترى الوجود والخلائق من خلال البعد الإيمانى ، وعلى أساس

الضابط والميزان الربانى الخالد ، وهو اليوم الآخر .

وتبلغ ذروة القصة فى المواجهة الرائعة بين الرجلين ، والتى من خلالها ، نستشعر الفكرة التى تحرك كليهما فى حياته ، والتى على أساسها ينبنى سلوكهما فى الحياة ، والذى على أساسه يكون مصير كل منهما .

علاقة القصة بالسنن الإلهية :

(1) ـ وهذه القصة تعتبر نموذجاً راقيا للقصص القرآنى ، الذى يعتبر باباً ومدخلاً عملياً ، وترجمة تطبيقية ، لسننه سبحانه الإلهية وهى السنن الإلهية الكونية فى الآفاق ، أى فى مجال عالم المادة ، وكذلك السنن الإلهية الإجتماعية فى الأنفس ، أى فى عالم البشر والأحياء عموماً .

وهذه السنن الإلهية من سماتها الثبات ، أى لا تتبدل ولا تتغير ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [1]

ومن سماتها أيضا الإضطراد أى التكرار أينما وجدت الظروف المناسبة مكاناً وزماناً وأشخاصاً ، وأفكارا ، ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾[2] .

---

(1) فاطر : 43 . (2) آل عمران : 137 .

ومن سماتها أيضاً العموم : أى أنها تشمل كل البشر والخلائق ، دون تفريق ، ودون استثناء ، وبلا محاباة ، ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ (1) .

وهى عبارة عن قوانين وقواعد قد خلقها الحق سبحانه لتنظم وتحكم حركة الكون والحياة والأحياء ، وتحكم حركة التاريخ ، وتنظم ناموسية التغيير ، وتتحكم بالدورات الحضارية ، موضحة عوامل السقوط وعوامل النهوض الحضارى .

والسنن الإلهية الاجتماعية ، هى المرتكز الذى على أساسه يقوم مجال واسع فى المنهج ، وهو الفقه الاجتماعى والحضارى .

وهذا الفقه يقوم على دراسة عوامل قيام وسقوط الحضارات .

وللأسف فإننا نكرر ما قلناه ، من أن الفقه الحضارى أو الاجتماعى ، أو بمعنى آخر فقه سننه سبحانه الإلهية الكونية والاجتماعية ، مجال بُخسَ حقه من حيث الفقه والتأصيل والبحث والدراسة والتعمَيق ، على الرغم من امتلاء أركان المكتبة الإسلامية ببحوث ومجلدات الفقه التشريعى !!!؟ .

---

(1) النساء : 123 .

والعجب يأتى من إهمال مجال الفقه الحضارى والاجتماعى رغم التأكيدات القرآنية المستمرة والمتعددة ، على ضرورة السير فى الأرض ، وفتح ملفات الأمم السابقة ، لاستجلاء سننه سبحانه ، لفقهها ، ولمعرفة حسن تسخيرها ، ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[1] .

والقصص القرآنى ما هو إلا برهان ثابت وموثوق حول فاعلية تلك السنن .

وما أحوج الدعاة لفقه جديد للقصة القرآنية ، وللوقوف طويلاً أمام التعقيبات القرآنية المباشرة لكل قصة ، والتى غالباً ما تذكر سنة من سننه سبحانه الإلهية ، التى تنطبق على أى واقع طالما وجدت أسبابها وظروفها زماناً ومكاناً وأشخاصاً وأفكاراً .

ومن ثمّ يمكن التفاعل معها ، وحسن تسخيرها فى المهمة الإنسانية الاستخلافية .

وفى عملية التغيير أو التبادل الحضارى .

خاصة فى المواجهة الحضارية المعاصرة ، وحسن عرض وتقديم المشروع الحضارى الإسلامى .

والقصة التى بين أيدينا تلقى الضوء على سنة إلهية اجتماعية

---

(1) الأنعام : 11 .

تعتبر نموذجاً ، بل قانوناً ثابتاً ومضطرداً وعاماً ، له بعدين :

البعد الأول : الظاهر القريب ، يمثل صورة من صور الصراع بين الحق وأهله ، وبين الباطل وأهله ، بين حاملى راية ومشعل الخير ، وبين حاملى راية الشر ، بين حاملى الأفكار والمبادئ وبين مالكى المادة والثروة ، ومن خلال ذلك الصراع تتضح الأفكار التى ينطلق منها سلوك وحركة كل تيار فى معركة الحياة ، وكيف أن هذا السلوك هو الأساس الذى ينبنى عليه مصير كل منهما .

والبعد الآخر الغامض البعيد : يمثل مثالاً واقعياً يعبر عن جولة من جولات الصراع بين الفكرة والمادة ، ويجيب على إشكالية التعايش بين التيار الدينى والتيار اللادينى ، المادى أو ما يسمى الآن بالتيار العلمانى ، حيث يتبين لنا مرتكزات كل تيار فى معركة الوجود وإثبات الذات ، والقواعد التى يبنى عليها رأيه فى التعامل مع الآخر وأفكاره ، وكذلك إمكانية قبول مبدأ التعددية والحوار عند كل من التيارين .

علاقة القصة بعملية البناء الفكرى :

(2) ـ تأتى هذه القصة فى سياق (سورة الكهف)، وهى إحدى سور القرآن المكى الذى كان يهدف إلى وضع الأساس العقيدى والفكرى للجماعة المسلمة .

(وأما المحور الموضوعى للسورة الذى ترتبط به موضوعاتها ويدور حوله سياقها ، فهو :

تصحيح العقيدة .

وتصحيح منهج الفكر والنظر ، الذى يتجلى فى استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم ، وفى توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه ، وما لا علم له به فليدع أمره إلى الله .

وتصحيح القيم بميزان العقيدة ، حيث يرد القيم الحقيقية إلى الإيمان والعمل الصالح ، ويصغر ما عداه من القيم الأرضية الدنيوية التى تبهر الأنظار)[1] .

والقصص هو العنصر الغالب فى السورة : ومن خلاله يعرض القرآن الكريم خلاصة لسننه سبحانه الاجتماعية التى تنظم بعض أحوال وصور الصراع الدائم والخالد بين الحق وأهله وبين الباطل وأهله ، فى عدة جولات حضارية ، تصور الحق وأهله فى مراحل مختلفة ، مرحلة الرفض والاستئصال ، ومرحلة التعايش فى مناخ يسمح بهامش الحرية ، ومرحلة التربية والتكوين ، ثم فى مرحلة التمكين :

---

(1) فى ظلال القرآن : سيد قطب 15/ 2257 ـ 2258 بتصرف .

(أ) ففى قصة (أصحاب الكهف)، صورة الحق عندما يكون مطارداً، مرفوضاً من التعايش والوجود مع الباطل، وكيف أن أهل الباطل دوماً تُحركهم الأفكار الاستئصالية لرأى الآخر، وتسيطر عليهم التوجيهات الاستقصائية لوجود الآخر. لهذا فإن أهل الحق لا يسعهم إلا أن يعلنوا اعتزالهم، فراراً بدينهم، وحفظاً لفكرتهم، وحمايةً لأنفسهم.

وقد بينا فى دراسة سابقة، هذه القصة من زاوية استجلاء بعض المعالم والركائز المنهجية للعمل الدعوى التغييرى.

(ب) وفى قصة (صاحب الجنتين)، صورة الحق عندما يوجد فى مرحلة اجتماعية، تتيح قدراً من حرية التنفس الفكرى فتسمح بمساحة لكل التيارات للتعبير عن توجهاتهم، وهى مرحلة يجد فيها أصحاب الحق فرصة الحوار وتقديم الحجج، أمام أهل الباطل، لفضح أفكارهم، ولكشف الستار عن سلوكياتهم وتوجهاتهم، وتحذيرهم من المصير المحتوم.

(ج) وفى قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع العبد الصالح، صورة الحق فى مرحلة أو صورة أخرى مهمة جداً، وهى ما تختص بمجال التربية أو فى مجال التكوين، حيث تعكس بعض ضوابط وركائز التعامل الداخلى بين أصحاب الحق بعضهم البعض.

منهـا أن يقـتنع كـل صاحب حق بأن وجـوده لا يلغى وجـود غيره ، بل إن هنالك من صور للحق الهادئ ، التى تحتاج لدعاية ولتجلية ، فيتبين منها أنها أعمق وأحق بالتعبير عن نفسها بجوار الصور الأخرى .

وهذا الضابط يدعونا إلى التنبيه على نقطة مهمة جداً ، وهى أهمية أن لا يستشعر القائمون على نشاط أى مؤسسة دعوية ، أن دورهم أعظم وأولى من أدوار الآخرين فى المؤسسات الأخرى ، بل إن البركة تأتى من التعاضد والتكامل والتنسيق .

ومنهـا أن يوقن الدعـاة أن وراء أى حـدث من الأحـداث ، دوماً أبعاد أخرى ، وحكم إلهية بليغة ، وذلك يدعونا ألا نحكم على الظواهر فى أى أمر .

ومنها ما يجب من سلوكيات فى المجال التربوى ، يحتاجها الدعاة ، خاصة خلق التواضع ، سواء عند التلقى والأخذ ، أو عند التلقين والعطاء .

(د) وفى قصة (ذى القرنين)، صورة الحق فى أخطر مراحله وأشدها مسؤولية وأكثرها حرجاً ، وأعظمها تحدياً ، وهى مرحلة التمكين وبيان لصورة طيبة من سلوكيات أصحاب الحق عندما يمكن لهم ، فتكون فرصة للاطلاع على ملف من سفر أدب المستخلفين ، يوضح منهجهم الإعمارى والاستخلافى فى الأرض .

إذن فالسورة بمحورها وموضوعاتها ـ خاصة القصص ـ تزخر بالكنوز التربوية ، التى تساهم فى عملية البناء الفكرى للأمة .

فما أحوج الدعاة لفقه دور القصة القرآنية ، بما تحمله من رصيد فكرى .

فالفكرة هى المنطلق الأول فى عملية النهوض الحضارى .

وذلك لأن سلسلة التحولات الحضارية ، إنما تنبع أو تنشأ من فكرة أو مبدأ ، وهذا المبدأ بدوره يُنشىء تحولاً نفسياً فى نفوس البشر ، وهذا بدوره ينشىء دافعاً داخلياً ، فيؤدى إلى سلوك اجتماعى ، وهذا التغير السلوكى الاجتماعى ، يفرز تحولاً اجتماعياً واقتصادياً ، وسياسياً [1] .

والقصة تلعب دوراً خطيراً فى عملية البناء الفكرى .

والبناء الفكرى هو مرتكز التحول النفسى للأمة .

والتحول النفسى هو أصل التحول الاجتماعى ، وذلك هو مرتكز التغيير الحضارى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2] .

---

(1) مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى : مالك بن نبى ـ طبعة دار الفكر 36 ـ 113 ثم 153 ـ 160 بتصرف .
(2) الرعد : 11 .

وما أحوجنا لأن ندرك أن حجر الزاوية ، وأساس كل هذه التحولات العظيمة ، إنما يأتى من خلال المحافظة على الورد القرآنى اليومى الثابت ، فهو يقوم بعملية تربوية دائمة ، حيث يقوم بعملية . . الربط الدائم بين العقلية المسلمة والفكرة .

منظومة الوعى البشرى .. والوأد الحضارى :

(3) ـ تبدأ القصة بهذا التوجيه إلى الرسول ـ ﷺ ـ .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً ﴾ .

وهو توجيه يدعوه إلى أن يوضح القضية التى كانت موضوع الساعة آنئذ ، وهى وزن القيم والأشخاص والأحداث بموازين إلهية ، لا تتحاكم إلى الظاهر بل بجوهر وبواطن الأشياء ، وذلك بضرب مثل توضيحى يقرب المعنى للأفهام .

و(لهم) تشمل كل من يحضره المثل ؛ سواء أعداء الدعوة من الكافرين ، وهم مشركى مكة فى ذلك الحين ، أو المؤمنين وذلك لأن المنهج القرآنى كان يرسخ قواعد ثابتة لقضية عامة ، وسنة إلهية اجتماعية ، يلزم أن يفقهها الجميع .

ويرى (المحققون المنصفون من العلماء) أن قصص القرآن واقعى وليس رمزياً ، وحقيقى وليس تمثيلياً ، وقصة صاحب الجنتين لا تخرج عن هذا المضمون ، فهى تعرض قصة رجلين

حقيقيين ، جرت بينهما الأحداث التى أشارت لها آيات القصة ، وكانت أحداثاً واقعية)[1] .

ولأن الفائدة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فإننا نستشعر من هذا التوجية الإلهى أنه توجيه لكل داعية أن يستخدم الأمثلة التوضيحية لبيان فكرته ، ولتوضيح قضيته .

وهى أيضاً دعوة صريحة لقراءة التاريخ ، وفتح ملفات الأفراد والأمم السابقة ، بغرض التذكير والموعظة واستجلاء الدروس ،لذا فإننا نضع أيدينا على مرتكزات ثلاثة تكون الثلاثية المعرفية ، المطلوبة من أجل إعادة صياغة وتشكيل العقلية المسلمة :

(أ) **فهم جيد للفكرة .**

(ب) **فقه بصير بالواقع** ، يتم من خلاله تقريب الفكرة والقضية بأمثلة توضيحية ، من خلال البيئة المحيطة ، والمألوفة للسامعين .

(ج) **قراءة عميقة للتاريخ** ، يتعرف بها على السنن الإلهية الكونية والاجتماعية ، الثابتة والمضطردة ،أى المتكررة ، والعامة

---

(1) مع قصص السابقين فى القرآن : د . صلاح عبد الفتاح الخالدى - طبعة دار القلم - دمشق 2 / 130 بتصرف .

التى تنطبق على أى واقع بشرى مشابه ، وعلى ضوئها يمكن تفسير مغزى المقولة : (التاريخ يعيد نفسه ، أو ما أشبه الليلة بالبارحة) .

وانطلاقاً من هذه الثلاثية المعرفية ، يتم إعادة صياغة العقلية المسلمة ، حتى تصل إلى حالة الوعى المنشودة ، وهى الحالة التى يمكن من خلالها استقراء الواقع وأحوال الحاضر ، على ضوء تجارب ورصيد الماضى ، مما يعين على النظرة المستقبلية الاستشرافية .

وإذا ارتقت العقلية المسلمة إلى حالة الوعى المنشودة تلك ، يمكننا أن نقول أننا قد نجحنا فى عملية تصحيح وتنقية للمخزون المعرفى داخل عقل الأمة ، وحصول أو تكوين ما يسمى بمنظومة الوعى البشرى ، عند أفراد الأمة .

وحينما تتكون منظومة الوعى البشرى ، نقول أن الحالة المعرفية عند الأمة ، قد بلغت مرحلة الرشد فى كلا المجالين :

المجال الأول (ذو البعد الكيفى) الذى يتعمق من خلاله وعى الأمة فى المجال الرأسى ، حيث تتضح وتتعمق به رؤية الأمة .

المجال الآخر : (ذو البعد الكمى)، الذى يتشكل من خلاله الوعى عند العقلية المسلمة فى المجال الأفقى ، حيث يزيد مجال

الوعى والإدراك البشرى ، فتتسع به دائرة أو مجال الرؤية عند الأمة .

وبمعنى أبسط ، فإن منظومة الوعى البشرى ، هى حالة معرفية أو إدراكية راقية لعقل الأمة ، تتكون من خلال إعادة صياغة العقلية المسلمة على مرتكزات الثلاثية المعرفية .

وهى أيضاً بمعنى آخر ، عبارة عن حالة معرفية راشدة ، يمتزج فيها الوعى بالماضى والحاضر والمستقبل ، فتؤدى إلى الدراية والوعى ، بكل شهود التاريخ البشرى ، وبكل سنن الله عز وجل الإلهية فى الأنفس أى فى عالم الأحياء ، وهى السنن الإلهية الاجتماعية ،وفى الآفاق أى : فى عالم المادة ، وهى السنن الإلهية الكونية .

وخلاصة ذلك أن يبلغ عقل الأمة مرحلة الرشد المعرفى والإدراكى ، مما يساعده على تحمل عبء المواجهة الحضارية .

فالقضية هى قبول العقل المسلم للتحدى الحضارى ، فيقتحم حلبة الصراع الحضارى .

ولا يدخل حلبة الصراع إلا من تسلح بمخزون معرفى يجمع بين الأصالة والمعاصرة .

إذن فالثلاثية المعرفية هى طريق تكوين منظومة الوعى البشرى .

ومنظومة الوعى البشرى هى الحصانة ضد أخطار التحدى الحضارى الداخلى والخارجى .

فالخطر يأتى من الخلل الإدراكى أو المعرفى داخل عقل الأمة أو بمعنى آخر من عدم تشكيل منظومة الوعى البشرى .

فيؤدى ذلك الخلل إلى ما يشبه بعملية الانتحار المعرفى ، وبالتالى ينتج عن ذلك ما يسمى بعملية الوأد الحضارى للأمة .

فعندما لا يدرك عقل الأمة الوعى بماضيه ، فهو بذلك يقطع جذور أصالته بيديه ! . وتصبح الأمة كالريشة فى مهب الثقافات المغايرة ، فتقتات عوامل النهوض الحضارى من على موائد الأغراب ! .

وعندما لا يدرك عقل الأمة المعرفة أو الوعى بواقعه وحاضره فهو بذلك يسلم قياد الأمة ـ وعن طواعية ـ إلى عملية التغييب أو التجهيل المعادية ، ويشارك فى عملية الوأد الفكرى للأمة وعندما يفقد عقل الأمة إدراكه بمستقبله ، فهو بذلك . . يساعد ـ وعن خيار قاتل ـ فى عملية التردى أو الوأد الحضارى لأمته !!!؟

جولات أو مشاهد القصة :

(4) ـ ثم تبدأ القصة ، فى مشاهد أو فقرات أو جولات أربع :

الجولة الأولى أو المشهد الأول : يعرض صورة وصفية لممتلكات الرجل الكافر .

والجولة الثانية أو المشهد الثانى : يعرض المواجهة والحوار بين الرجلين ، كُلٌ يعرض رأيه وأفكاره دون تدخل من الآخر .

والجولة الثالثة أو المشهد الثالث : يعرض المصير ، كما توقعه الرجل المؤمن ، الخبير بسننه سبحانه الإلهية .

والجولة الرابعة أو المشهد الرابع : يعرض التعقيب القرآنى والدرس العظيم من القصة .

مقياس النضج البشرى :

(5) ـ الجولة الأولى : تأخذ فى عرض صورة وصفية مفصلة لكل ممتلكات الرجل الكافر : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ هكذا يصف القرآن واقع الكافر والزينة التى تسببت فى طغيانه وتكبره ، فهو يمتلك جنتين مثمرتين من الكروم ، محفوفتين بسياج من النخيل ، تتوسطهما الزروع ، وفوق كل هذا ، هنالك نهر يتفجر بينهما .

إنه المتاع الدنيوى والزينة الخلابة ، والحيوية المتدفقة ! التى تأخذ بالألباب .

وبتدبر مفردات هذه الجولة ، نجد أن هناك بعض الملامح التربوية ، التى ترسم صورة حول ماهية الرجلين موضوع المثل ،

وينكشف بعض أبواب حكمته سبحانه فى التوجيه بضرب هذا المثل :

(أ) إن النعم الدنيوية ليست مقياساً على مدى رضاه سبحانه على العبد .

وتأمل ذلك الملك العريض للرجل الكافر ، بالمقارنة إلى تواضع الوضع المادى للرجل المؤمن .

وتدبر آيات (سورة الفجر) ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ** ﴾[1] .

وتدبر مغزى كلمة : « كلا » التى تأتى لتصحيح منهج الفكر والنظر .

فالعطاء الدنيوى ليس من باب الإكرام ، والتضييق فى الرزق ليس من باب الإهانة .

وتدبر كذلك مغزى كلمة : « ابتلاه » بدلاً من كلمة رزقه أو أعطاه .

ويتضح هنا أيضاً معنى حكمته سبحانه ، فى قضية الابتلاء بالسراء ، وكيف أنها تعتبر أخطر من الابتلاء بالضراء : ﴿ **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** ﴾[2] .

---

(1) الفجر : 15ـ17 . (2) الأنبياء : 35 .

(ب) إن أثر النعم على الإنسـان يكون بناءً على الفكرة التى تحركه وتوجه سلوكه وحركته فى الحياة .

لذا فـإن ذوى النفـوس الربانيـة والفطر السـوية ، يشكرون ربهم ليحفظ عليهم هذا النعيم .

وهذا الشكر يكون باطنياً ، بالاعتراف بفضل الله عز وجل ، ويكون ظاهرياً بتوجيه الجوارح والحواس فتوظف هذه النعم فى طاعته سبحانه .

أمـا ذووا النفـوس المنحـرفـة والفطر المطمـوسـة والقلوب المنكوسة ، فلهم شأن آخر ؟!

فـعندمـا تنحـرف النفـوس ، وتنطمس الفطرة ، وتنتكس البصيرة ، يكون توجهها ومسلكها هو ذلك المسلك القارونى ، حينما : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى ﴾ [1] .

وينسى القوة المدبرة ، واليد المانحة ، ينسى فضله سبحانه ، ينسى فى خضمّ طغيانه ، مغزى هذه اللمحات القرآنية ، التى توضح مصدر العطاء ، ومصدر الخير ، ويغيب عنه تدبر المغزى العميق لإسناد الأفعال إلى الله تعالى : (لقد أسندت الأفعال الثلاثة الماضية إلى الله :

---

(1) القصص : 78 .

(جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب) .

(حففناهما بنخل) .

(جعلنا بينهما زرعاً) .

وهذه اللفتة النحوية البيانية ، تدلنا على أن الله سبحانه هو الفاعل الحقيقى ، والمقدر للجنتين ، وما فيهما من زروع وأشجار وثمار .

إن الآية تجرد صاحب الجنتين الكافر من أى جهد ، فهو سبب والله هو المسبِّب . وهو من باب تقبيح صنيع صاحب الجنتين) [1] .

(ج) وهنالك ملمح تربوى آخر : لقد حملت الجولة الأولى من القصة ، وصفاً مفصلاً عن ممتلكات الكافر ، ولم تصف ما يملكه الرجل المؤمن من متاع مادى .

وبتدبر هذه اللفتة القرآنية ، نجد أن لها ـ والله أعلم ـ بعدين :

البعد الأول الظاهر : هو أن الرجل المؤمن لا يملك من أمور

---

(1) مع قصص السابقين فى القرآن : د . صلاح الخالدى ـ طبعة دار القلم ـ دمشق 2 / 133 ـ134 بتصرف .

مادية ، ما يستحق الذكر والوصف ، ولو على الأقل بالمقارنة بما يملكه الرجل الكافر .

وهذا ما يؤثر على عقل الأمة الباطن ، ويوقع بعض النفوس فى شبهة ربط الإيمان دوماً بالفقر والكفاف ، والزهد فى نصيب الدنيا .

وهى الشبهة التى جعلت العقول تدور حول القضية الأزلية الكلامية ، هل الغنى الشاكر أفضل ؟ أم الفقير الصابر ؟! . . وهذا ما يضخمه ويعمقه متطرفة الصوفية ، إما عن جهل ، وإما عن كسل فى السعى والحركة فى خضمّ الأمور الحياتية .

وهى الطامة الكبرى التى أثرت على حركة العقلية المسلمة فى فقه سننه سبحانه فى الكون ، فتأخرت وأخرت الأمة حتى أصبح جُلّ الأمة ، إن لم تقل كلها ، فى نطاق العالم الثالث المتأخر ، الذى يعيش على هامش الأحداث ، وكأنهم الأيتام على موائد اللئام !

وقل لى ـ بربك ـ ماذا عن أغنياء الصحابة ؟! ماذا عن تلك البشرى التى وردت عن الحبيب ـ ﷺ ـ عندما بشر (ذا النورين) عثمان ـ رضي الله عنه ـ بأن له عين فى الجنة : «**من يشترى بئر رومة وله عين فى الجنة**» وذلك بعطائه الفريد عندما اشترى بئر رومة ،

وتدبر أن مسلكه العطائى ـ رضي الله عنه ـ كان مستمراً ، ولم يك مجرد حماسة وقتية ، أو فورة عارضة ، لأنه جهز جيش العسرة أثناء (غزوة تبوك)، مما جعل الرسول ـ ﷺ ـ يقول : « **ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم** » (1) .

أما البعد الآخر البعيد المغزى : فهو ـ والله أعلم ـ من باب أن ما يملكه المؤمن وما يعتز به ، بل وما يميزه ويستحق أن يوصف به ويتشرف به ، فهو ليس المتاع الدنيوى الزائل ، بل الفكرة والمبادئ التى يحملها ، وهذه ليس مكان ذكرها الآن بل ستظهر فى مواقفه وسلوكياته وعقليته الناضجة ، وذلك أثناء جولة المواجهة الحوارية القادمة .

وهذا ما يذكرنا بأن مقياس النضج البشرى ، هو بالقياس إلى ما يحمله من أفكار ، ومبادئ حفظاً للفارق والإكرام الذى أكرم الحق سبحانه به الإنسان على سائر خلقه ، وهى المنّة التى امتن عليه بها ، فبعد نعمة تعليمه وتفهيمه القرآن ، وبعد نعمة خلقه ، تأتى مباشرة نعمة النطق والفكر : ﴿**الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ (2) .

---

(1) أعلام المسلمين ـ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ : خالد البيطار ـ مكتبة المنار 37 .

(2) الرحمن : 1ـ4 .

وهذا للأسف ـ ما يغيب عن الكثيرين عندما يُقيِّمون الأشخاص والعقليات ! .

فمجال تقييم البشر ، لا يكون على أساس المخزون المادى ، بل بالمخزون المعرفى والفكرى ، لأنه مجال تميز الإنسان .

قراءة .. فى مفردات خطاب علمانى ؟

(6) ـ الجولة الثانية : وهى جولة المواجهة الحوارية ، والمباراة الفكرية ، والمبارزة المعرفية بين الرجلين ، وهى جولة من مداخلتين .

المداخلة الأولى : يعرض فيها الرجل الكافر رأيه وأفكاره دون مقاطعة من الرجل المؤمن : ﴿ **فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا** ﴾ .

وهى صورة توضح الحالة الغريبة التى اعترت صاحب الجنتين ، فامتلأت نفسه كبراً وتيهاً ، بجنتيه فأحس بالزهو ، وانتفش خيلاءً ، وتعالياً ، على صاحبه الرجل المؤمن الفقير ، وعايره معايرة المفتون بالمال والولد . ثم ذهب إلى إحدى جنتيه مختالاً على الجميع بما فيهم صاحبه ، ونسى نفسه وظلمها فأوردها موارد الهلاك ، وافترض أن نصيبه الخلود ، ثم نسى

الميزان الذى يضبط المشاعر والعواطف والسلوك ، نسى اليوم الآخر ، وأنكر قيام الساعة ، وشكك فى صحتها . ثم أخذه الاستهزاء مأخذاً جريئاً ، ليعلن أنه حتى وإن قامت الساعة فسيكون من أهل الحظوة والمكانة أيضاً ! لِمَ لا وهو من أهل المكانة فى الدنيا ؟! ذلك تصوره !!!

ولو تساءلنا :

لِمَ بادر الرجل الكافر فى الحوار مع صاحبه المؤمن ؟!

ولِمَ حاوره ؟!

وما هى منطلقاته فى الحوار ؟

وما هى الغاية التى يريد أن يصل إليها من خلال الحوار ؟

وما هى القضية المحورية التى تدور حولها حركة وسلوك الرجل الكافر ؟

فإن تدبر هذه المداخلة ، يمكن أن يجيب على هذه التساؤلات ، وكذلك يضع أيدينا على بعض الملامح التربوية ، التى تبين بعض سلوكيات اللادينيين ، وتفضح توجهات الماديين وتكشف ستر أفكار العلمانيين ، وهى مجرد قراءة فى مفردات الخطاب اللادينى أو المادى أو العلمانى فى ذلك العصر .

ذلك الخطاب الذى يكاد يكون هو نفس الخطاب المادى فى كل عصر .

ويمكننا أن نعلن وبلا مجاملة فكرية ، أنه حتى وإن اختلفت المصطلحات ، فإن اللادينية هى صنوان المادية أو العلمانية .

ولذا فإننا ـ وقبل أن نبدأ فى القراءة المتأنية لهذا الخطاب ـ يحسن بنا أن نذكر صورة أخرى من الخطاب اللادينى العلمانى ، وهو من أدبيات عصر آخر .

ذلك لأن الأدبيات عموماً تعكس الحالة التى تواجهها الفكرة فى تلك الفترة .

وعلى أساس القاعدة الثابتة التى تؤكد أن الأدبيات تشهد دوماً على عصرها .

وكذلك القاعدة الثابتة الأخرى التى ترتبط بها ، وهى أن الأدبيات تشهد أيضاً على المرحلة الفكرية التى يمر بها عقل أصحابها وعلى المرحلة الفكرية للأمة عموماً .

وهذه الأدبية هى القصة التى أوردها الإمام(محمد بن إسحاق بن يسار)فى معرض تفسير سورة (فصلت) ، (قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً ـ قال يوماً وهو جالس فى نادى قريش ـ ورسول الله ـ ﷺ ـ جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم

حمزة - رضي الله عنه - ورأوا أن أصحاب رسول الله - ﷺ - يزيدون ويكثرون - فقالوا : بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبه حتى جلس إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يا ابن أخى إنك منا حيث علمت من السلطة فى العشيرة ، والمكانة فى النسب ، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً ننظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، قال : فقال رسول الله - ﷺ - : « **قل يا أبا الوليد أسمع** » قال : يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله - ﷺ - يستمع منه قال : « **أفرغت يا أبا الوليد ؟** » قال : نعم . قال : « **فاستمع منى** » ، قال : أفعل . قال : **بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)**

بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ (1) ثم مضى الرسول ـ ﷺ ـ فيها وهو يقرؤها عليه ، فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى الرسول ـ ﷺ ـ إلى السجدة منها فسجد ثم قال : « **قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك** » ، فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ فقال : ورائى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزُّه عزكم وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك يا أبا الوليد بلسانه ؟! قال هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم) .

وفى رواية أخرى : أن قريش عندما ثارت بقيادة أبو جهل ، مستنكرة على (عتبة) اعتزاله لهم ، بسبب تأثره بكلام الرسول ـ ﷺ ـ فكان مما ورد فى إجابة (عتبة) ، أنه قال لهم :

---

(1) فصلت : 1ـ4 .

(فأجابنى بشىء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، وقرأ السورة إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (1) فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئا لَمْ يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب) (2) .

وسنحاول المقارنة والربط بين مفردات خطاب الرجل الكافر وخطاب (عتبة بن ربيعة)، وحتى تتضح الصورة سنلمح حول الخطاب العلمانى المادى المعاصر ، ونركز بعونه سبحانه على بعض النقاط :

حركة التدافع الفكرى :

(أ) لقد بادر الرجل الكافر بالحوار ، ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ وكذلك بدأ (عتبة بن ربيعة)، ممثلاً لمبادرة قريش .

ولقد قبل الرجل المؤمن وكذلك محمد - ﷺ - دعوات ومبادرات التجسير تلك ، من باب أن وجود جسور فى العلاقات من شأنها أن تثمر الحركة الحوارية بين التيارات .

لأن حرية الرأى تعتبر الركيزة التى تنشط حركة تمحيص الأفكار وتنقيتها ، فتمر فى عملية انتقائية ، تفرز أصوب وأصلح

---

(1) فصلت : 13 .

(2) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير - طبعة دار المعرفة بيروت 4/ 98-99 .

وأشـمل الآراء ، وأكـثـرها واقـعـيـة وقـبـولاً من رجل الشـارع العادى .

(وحينما تتاح حرية الرأى فى مستوى الإعلان والحجاج ، فإن العقل ينفتح على الرأى المخالف والمعطيات المضادة ، وتتم فى نطاق الحوار المقابلة بين الآراء فيسقط الضعيف ويصح القوى أما الكبت والمنع من التعبير والمحاورة فلا يثمر إلا الانغلاق على الرأى الواحد والتشبث به والتعصب له ، فلا يكون العقل ناظراً إلى الأمور إلا من زاوية واحدة قد تخطئه الحقيقة أحياناً كثيرة ، ولا غرو حينئذ أن ينمو التعصب للآراء والتشبث الأعمى بها فى كل مناخ تصادر فيه حرية التعبير ، وأن تنمو المرونة العقلية وتقبل التصويب فى كل مناخ تشيع فيه هذه الحرية . وما أروع التربية النبوية فى هذا الخصوص ، فقد انتهجت نهج الانفتاح على مضادات الآراء بما أتاحته من حرية القول والاحتجاج والنقد ، وقد اتخذ النبى - ﷺ - شعاراً له : « **أشيروا على أيها الناس** »[1] .

وتدبر كيف أن هذه المبادرة فى تجسير العلاقات ، فى مناخ يسمح بحرية التنفس الفكرى ، قد أثمرت هذه الخلخلة فى صف

---

(1) دور حرية الرأى فى الوحدة الفكرية بين المسلمين : د . عبد المجيد النجار - طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى - سلسلة أبحاث علمية (6) 61 .

قريش ، مما تسبب فى فتح الطريق أمام العقلاء ، والمعتدلين منهم مثل عتبة والذى اعتزل قريش ، بعد سماعه للفكرة نقية دون حجاب من الحبيب - ﷺ - .

وحتى لو شعرنا أن الكافر قد فتح باب الحوار ، من باب التشفى فى صاحبه ، ولكننا سنرى فيما بعد كيف أن المؤمن وبذكاء عجيب وثقة ، ومن باب (لست بالخبّ ، والخب لا يخدعنى) ، قد قلب المائدة عليه وعلى أفكاره فى أدب وحجة بالغة ، وكسب جولة تصويب الأفكار .

وحرية الرأى أو حرية الحوار ، إنما تدل على صحة المناخ الاجتماعى السائد ، وهو الدعامة التى تصنع الأحرار وتعمل على تفعيل وتنشيط عوامل الوحدة الفكرية عند الأمة .

وفى عصرنا نسمع الكثير عن الندوات والحوارات التى تنظمها مراكز توجيه الفكر ، والتى يقوم عليها رموز علمانية . والواجب أن يحسن أبناء التيار الدينى استغلال هذه المبادرات ، لأنهم فى حاجة لكسر طوق الحصار على الأفكار ، وتشجيع الحركة الحوارية ، لأنهم الأقدر والأعلى بفكرتهم الربانية فهى الوحيدة القادرة على كسب العملية الانتقائية للأفكار تحت ضوء حرية الرأى .

وإجابة مبادرات الحوار ، هى العلامة التى تفتح باب الأمل فى ترسيخ قضية قبول الآخر ، فبالإضافة لما أسلفناه ، فإن القرآن الكريم قد أشار فى غير موضع إلى هذه القضية ، فى الحوارات الكثيرة التى تضمنتها آياته الكريمة ، وحق الآخر فى المناقشة والتعبير عن رأيه ، ويكفينا فى هذا المقام مجرد الإشارات السريعة ، إلى بعض منابر الحوار . فتدبر حوار (إبليس) اللعين مع الحق سبحانه[1] ثم فى حوار موسى - عليه السلام - مع (السَّامرىّ) [2] وحوار (الهدهد) مع سليمان - عليه السلام - [3] وحوار أصحاب النار مع أصحاب الجنة [4] .

وهو الأمر الذى يجب أن يؤخذ بجدية داخل أى مؤسسة دعوية كانت أو أسرية ، تحاول المشاركة فى المشروع الحضارى المنشود ، الذى من أهدافه وثوابته ، هى محاولة تنقية العقلية المسلمة من آثار المناخات الاستبدادية ، وهى الأمراض الفكرية ، التى تكاثرت جراثيمها فى أروقة العقليات المكبوتة ، فأثمرت :

---

(1) الحجر : 32ـ44 ، و(ص) 75ـ85 .

(2) طه : 95ـ98 .

(3) النمل : 20 ـ28 .

(4) الأعراف : 44ـ51 .

عقلية العوام ، وطبيعة القطيع ، ونفسية العبيد[1] .

فلابد من حرية الرأى وحرية الحوار ، وذلك لأن العملية الانتقالية للأفكار ، تمر عبر حرية الرأى والحوار ، فى مرحلة هى أشبه ما تكون بعملية الصراع السلمى للآراء والأفكار ، أو هى ببساطة ما نسميها بحركة التدافع الفكرى الآرائى ، وهذه صورة من صور حركة التدافع الحضارى الشاملة ، التى جعلها الحق سبحانه من السنن الإلهية التى تفرز الأصوب والأبقى والأصلح فى كل شىء ، سواء أفكاراً أو آراءً أو أفراداً أو أمماً ، فإذا توقفت تلك العملية التدافعية الحضارية المختلفة الصور لكان الفساد ، وهذا من فضله سبحانه من أجل ديمومة واستمرارية العملية الاستخلافية الإعمارية فى الأرض : **﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** [2]

أهمية عملية التجسير :

(ب) لقد كان من أسباب وعوامل تشجيع وتنشيط بل وتفعيل الحركة الحوارية بين التيارين اللادينى والدينى ، والممثلين بالرجلين الكافر والمؤمن ، هو العلاقة السابقة ، أو الأرضية التى نشأت عليها صحبتهما .

---

(1) دور حرية الرأى فى الوحدة الفكرية بين المسلمين : د . عبد المجيد النجار ـ طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى ـ سلسلة أبحاث علمية (6) 15 .

(2) البقرة : 251 .

وتدبر ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ ﴾ ، وذلك بعد أن ندرك أن معنى الصاحب هو (الملازم إنساناً كان أو حيواناً ، أو مكاناً أو زماناً ولا فرق بين أن تكون مصاحبته بالبدن وهو الأصل والأكثر أو بالعناية والهمة . ولا يقال فى العرف إلا لمن كثرت ملازمته)[1]

إذن فهناك بين الرجلين ـ وعلى الرغم من خلافهما الفكرى ـ علاقة مصاحبة وملازمة ، وهى التى ساعدت على عملية الحوار وحرية الرأى .

وتدبر قول (عتبة)، وكيف بدأ بالضرب على وتر العلاقة السابقة ورابط صلة الرحم : (يا ابن أخى إنك منا حيث علمت من السلطة فى العشيرة ، والمكانة فى النسب ، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً ننظر فيها لعلك تقبل منها بعضها) .

وهو الملمح الذى يدعو أصحاب التيار الإسلامى إلى أن يدركوا المغزى البعيد لكلمة (صاحبه) التى تكررت فى سياق القصة ، و(يا ابن أخى) ، التى تكررت فى خطاب (عُتبة) ، فيكونوا من أنصار تجسير العلاقات ، واستغلال العقلاء من معتدلى التيار المادى ، وهو الأمر الذى من شأنه أن يزيد فى حركة التقارب وتنقية الآراء ، ويقطع السبيل على بعض الفصائل

(1) مفردات ألفاظ القرآن : الراغب الأصفهانى 475 .

داخل التيار العلمانى ، التى تنتهج النزعات الاستقصائية للآخر خاصة الإسلاميين .

فالجسور التى تمتد بين قمم الجبال ، هى المعبر والسبيل الذى يتجاوز به خطر الهلكة فى أودية الخلاف والقطيعة .

منطلقات دونية :

(ج) لقد بدأ الكافر حواره ، بتعال ، وتفاخر ، وبأسلوب معايرة سافر رخيص ، وبطريقة غير أخلاقية ، تفتقد اللباقة والحنكة والرشد ، وتركز على نقاط الخلاف ، وتستفز الحليم .

وهذا لا يستنكره من يدرك القاعدة الثابتة ، وهى أن حركة وسلوك أى فرد بل وأى أمة ، إنما تنبع من الفكرة التى تؤمن بها .

فالفكرة أو المنطلق الذى ينطلق منه سلوك الرجل الكافر هو المنطلق المادى البحت ، ممثلاً فى الاعتزاز بالمال والولد ، وهى صور تمثل الطين وثقلته ، وهى المنطلقات الأرضية الدونية .

وتدبر أيضاً منطلقات خطاب قريش فهو أيضاً ينكشف تحت بؤرة الحوار ، حيث ظنت أن محمداً ـ ﷺ ـ ، كانت غاياته أرضية ، طامعاً فى المال والشرف والجاه والسؤدد ، وإذا لم يطلب تلك الأمور فهو إذن مريض يحتاج إلى الطب والدواء .

فتدبر هذه المنطلقات المادية الحيوانية ، والتى لم تك تفتضح إلا تحت نور الحوار وحرية الرأى .

ولا تستعجب من الاتهامات التى تلصق بالتيار الإسلامى المعاصر ، من قبل الخطاب العلمانى المعاصر ، فهم يحصرون اتهاماتهم فى أن التيار الإسلامى يسعى إلى السلطة والملك ، والسيطرة على مقدرات العالم وليس الأمة فقط ، وكأن السلطة والمال هى غاية التيار وليست وسيلته إلى الهدف المنشود ، فى أن يكون الدين كله لله ، وحتى لا تكون فتنة ، تفتن الناس عن دينهم .

ولهذا نراهم وقد وجهوا جهودهم إلى تجفيف المنابع ، كل المنابع ، سواء المنابع المالية بمحاربة كل ما هو إسلامى ، كالبنوك وغيرها من المشاريع الإسلامية ، أو المنابع البشرية ، بالمحاصرة والتشكيك والتهديد بل وبالسجن والتعذيب .

وسنرى فيما بعد رد الرجل المؤمن ، ونقارنه برد الحبيب - ﷺ - ، وكذلك رأى التيار الإسلامى المعاصر لنرى ما هى منطلقاته ووسائله وغاياته .

وعندما يدرك المسلم هذه المنطلقات العلمانية المادية ، ويقيسها بموازينه الربانية ، فيدرك الفارق والتمايز بين منطلقاتهم

ومنطلقاته . فيردد تلك الترجيعات ، الباعثة على الأمل والتفاؤل :

يا دامـــــع العينيـــن لا	تحـــزن على هذا السراب
من لم يكن في الخلــــــد	مسكنـــه فمأواه التراب
الشـــمس تؤذن بالغيـــاب	والراحلـون إلـى إيـــاب
من لـــم يكن في الفلك	أدركــــــه الغـــــرق
وطواه تيـــار الظــــــلام	وغـاب في لجـج الغسق
مـــن لـــم يكـــن في قلبـــه	الرحـــمـــن أدركـه القلق

ظاهرة الانغلاق على الذات :

(د) وكان الكافر أثناء مداخلته الحوارية ، يتحرك في صورة المهزوز المضطرب ، وكأنه يهرب من خطر الاستقرار والمواجهة ، ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ ، هكذا في التعبير القرآني .

إن جنته هي حدوده وهي غاياته ، فعقليته عجزت عن كسر السياج الذي رضيت بأن يقام حولها ، واهتماماته انحصرت داخل ذلك الحيز الضيق ، ذلك الضيق المركب ، ضيق الدنيا

والماديات التى تعمى صاحبها ، فلا يرى إلا ملكه ، وضيق الفكر فلا يسمع إلا نفسه ،ولا يرى إلا رأيه ، بنهج فرعونى إستبدادى إرغامى (ديكتاتورى) ! ، وذلك لأن الإهتمامات المادية بطول المعايشة تؤدى إلى حركة ضمور فكرى ، وعملية إستلاب مهينة لدور وحرية العقل ، فى أن يرى الحقيقة مجردة بسيطة ! .

وتأمل كيف أن هذه الرؤية المحدودة ، قد جعلت (عُتبة) أيضاً أثناء الحوار يقصر بدائل الفكرة ، التى دعاهم إليها ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الماديات ؛ من ملك وجاه وسؤدد ، وهى صورة أخرى من صور حالات الضمور الفكرى ، والإستلاب لحرية العقل .

وتذكر معى ، مقالة (ربعى بن عامر)لرستم الفارسى وملأه محاولاً إنقاذ العقلية المريضة الضيقة المعالم ، التى وجد الفرس عليها : (إن الله قد ابتعثنا لنخرج من شاء من العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة) .

فتأمل أيضاً ، الفرق بين العقلية المنفتحة ذات الرؤى الرحيبة اللاحبة الواسعة ، التى لا يحدها أرض ، والتى تربت على العقيدة وبين العقلية المادية الكافرة الضامرة الضيقة .

وهنا فقط نلمح حول إحدى الظواهر الدعوية ، التى تنبثق

من هذه السنة الإلهية الإجتماعية ، فالماديين عندما يقصرون إهتماماتهم على الأشياء والماديات والأشخاص ، يصابون بنوع من الضمور الفكرى ، وضيق الأفق ، وضيق الرؤية ، فلا يرون إلا ذواتهم وممتلكاتهم ومادياتهم وأشياءهم ، ولا يسمحون لعقولهم بالخروج من جنتهم التى يبنونها بأيديهم .

وكذلك البعض من الدعاة ، عندما يقصرون عقولهم على أشياء مادية أو موروثات ثقافية معينة ، وعلى أشخاص بعينهم فلا يسمعون إلا لهم ، ولا يسمحون لعقولهم بغربلة المعطيات ، التى تلقى إلى عقلياتهم ، ولا يتلقونها بالنظرة النقدية ، يصابون أيضاً بظاهرة الإنغلاق على الذات ، ذات المناحى والمنهجية الخطية ، فيعيشون داخل جنتهم التى يقيمونها بذواتهم ، فيظلمون دعوتهم ويظلمون أنفسهم ، وذلك لأنهم تعرضوا لسنة إلهية لا تتبدل ولا تحابى ! .

لأن المناخ الإجتماعى المغلق ، يفرز فكراً مغلقاً ، وينشئ سلوكاً متحجراً ، ويكوِّن عقلية منغلقة .

فالضيق المناخى يورث الضيق الفكرى والسلوكى .

وكبت الفكر ، يورث فكر الكبت !

والجزاء من جنس العمل !!!! ؟

نشاز... و... شذوذ !

(هـ) لقد انتكس الكافر فكرياً ، عندما جعل حدوده لا تخرج عن نطاق جنته ، وفوق هذا دخلها وتشرنق ، وكأنه يستمرئ حالة الضيق الفكرى ، ولقد كان الوصف القرآنى دقيقاً عندما حكى عنه أنه تجول داخل جنته ﴿ **وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ ، لقد دخلها ولم يتدبر عطاء الجماد ، لم يتدبر أن ﴿ **كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا** ﴾ .

وقد يعجب المتدبر للقرآن من هذا الموقف :

جنة مكونة من زروع وأعناب ونخيل ، كانت عادلة ، بحيث لم تظلم ، ولم تُخف من ثمارها شيئاً . نبات وتراب وجماد ينفى القرآن عنه الظلمَ !

وإنسان مكون من عقل وروح ، وله مشاعر وعواطف وأفكار ، ومع ذلك كان ظالماً فى حياته ، ودخل هذا الإنسان الظالم جنته غير الظالمة ، فأخذ ثمارها التى قدمتها له بكرم وسخاء ، أخذها بظلم وبغى وبطر !

عجيب هذا الأمر : نبات كريم معطاء لا يظلم ، وإنسان بخيل مغرور ظالم .

ولا ننسى أن القرآن أضاف ظلم الإنسان الكافر لنفسه ، فهو ظالم لنفسه : لأنه كفر بالله ، فأوردها موارد الهلكة ، وهو ظالم لنفسه : لأنه أضاع أمواله ، وظالم لنفسه : لأنه خسر جنتيه ، وظالم لنفسه : لأنه بدل نعمة الله كفراً . ولا يظلم الظالم فى الحقيقة إلا نفسه ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) [1] .

وكذلك كانت قريش فى خطابها الاستنكارى ضد موقف (عُتبة) واعتزاله لهم بعد الحوار ، فهو الضيق والظلم للنفس التى تعرضت لعملية الاستلاب الفكرى ، فلم تقاوم واستمرأت التشرنق داخل سياج مادى أرضى دونى صنعته بأيديها .

وهنا ملمح تربوى آخر : وهو أن وجود الكافر ، أو قريش كتيار فكرى لا دينى ، لا ينسجم مع طبيعة الوجود الساجد العابد لرب الوجود .

إنه النشاز ، والشذوذ ، نشاز يعارض سننه سبحانه الإلهية الكونية ، وشذوذ يصطدم ويضاد حركة الوجود ، كل الوجود !

وتدبر هذا الأنس مع الوجود ، الذى يستشعره المؤمن فى

(1) مع قصص السابقين فى القرآن : د . صلاح الخالدى - طبعة دار القلم - دمشق 2 / 136 - 137 .

حياته ، وهو الشعور الذى افتقده (كعب بن مالك) ـ رضى الله عنه ـ فى محنته عندما قال : « فاجتنبنا الناس . أو قال : تغيروا لنا . حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى أعرف »[1] .

وتدبر موقف الوجود مع الكافرين ، عند هلاكهم ، لقد وصف الحق سبحانه ، كيف انقطعت العاطفة بين الكون بل والوجود كله ، وبين فرعون وملأه : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾[2] .

معارضة السنن الإلهية :

(و) ثم ينكشف معلم آخر ، من خطاب الكافر المادى ، ويفتضح تحت حركة الحوار ، وتحت معاول العملية الإنتقائية للأفكار ، وحركة التدافع الآرائى ، عندما قال : (ما أظن أن تبيد هذه أبداً) ، وبعيداً عن المعنى القريب الذى يصور الكافر فى صورة الطامع فى الخلود المادى ، والإستمرارية الفكرية ، والديمومة كتيار .

فإن المعنى التربوى البعيد ، نستشعره من خلال قراءة تلك

---

(1) متفق عليه .
(2) الدخان : 29 .

المقولة التى وردت فى خطابه ، فيتبين لنا أن هذا الكافر وما يمثله من تيار ، وكنتيجة لضيقه الفكرى ، فإنه يجهل ناموس الوجود ولا يفقه سننه سبحانه الإلهية فى التداول والتبادل الحضارى ، يجهل ما يفقهه كل مؤمن ، ويغيب عنه : ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1] .

إن عدم فقه السنن الإلهية من شأنه أن يصيب التيارات اللادينية بالغرور ، وحب التملك فترفض عملية التداول الحضارى .

وتنزع إلى حب السيطرة فلا تسمح بقانون تداول السلطة ولو أتت عن طريق ما تتشدق به من حرية و(ديموقراطية) !؟

وفى نفس الوقت فإن فقه سننه سبحانه ، من شأنه أن يزيد رصيد التيار الدينى من الثقة فى وعده سبحانه : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[2] .

وهو الفقه الذى يعطى العاملين المؤمنين زاداً عظيماً ، وهو الأمل فى التغيير ، والعبور من مرحلة الخوف إلى مرحلة الأمن :

(1) آل عمران : 140 .
(2) القصص : 5 ، 6 .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (1).

هادموا الثوابت !:

(ز) ثم نستمر فى قراءة الخطاب المادى ، على لسان الرجل الكافر ، لنضع أيدينا على مرتكز آخر لخطابه ، عندما نسمعه يقول : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ .

وعلى نهجنا فى قراءة المغزى التربوى البعيد لهذه المقولة النكدة ، التى تدل ـ فى معناها القريب ـ على أن صاحبها ، يشكك فى اليوم الآخر ، ولا يقتنع بقيام الساعة والعياذ بالله .

ولأن المؤمنون يدركون أن الإيمان باليوم الآخر ، هو المحور الذى يكون مع محور التوحيد ومحور الإيمان بالوحى والرسالة المحاور الثلاثة التى تقوم عليها العقيدة الإسلامية .

فإننا نجد هدف هذه المقولة فى الخطاب المادى للرجل الكافر هو نفسه هدف الخطاب المادى لقريش ، والذى ورد على لسان عتبة : (وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفَّرت به من

(1) النور : 55 .

مضى من آبائهم) .

بل هو نفسه أحد مرتكزات الخطاب العلمانى المعاصر ، حيث يقوم على المحاولات الجهيدة لهدم مقدسات الأمة ، و تدمير ثوابتها العقيدية .

ولذلك لا يستعجب كل مؤمن ما يسمعه ليل نهار من كتابات إباحية تحاول هدم ثوابت عقيدة الأمة .

وتدبر مغزى كتبهم المعنونة بعناوين مستفزة ، فلا تجد أبلغ من هذه الكلمات : (ربى ما أحلمك !!!؟) وأنت تقرأ مثل تلك العناوين : (شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة) للشيوعى (خليل عبد الكريم)، و (يا أرضنا يا زوجة الإله والطغاة) للإباحى (أدونيس)، وكذلك كتابات (فرج فودة) و(حسن حنفى)، وإخوانهم الذين يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ! .

عدم الفقه .. خطره .. وسببه :

(ح) ثم نقطة أخيرة فى خطاب الكافر نلمحها من خلال قولته : (ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا) هكذا فى سخرية ، وفى تعال مقيت .

ونستشعر المغزى البعيد لهذه المقولة ، والتى تفضح طبيعة الخطاب المادى للكافر ، لقد أصابه الغرور ، فربط بين موازين

الدنيا ، وموازين اليوم الآخر - لعدم إيمانه به - وظن أن حظه إذا كان جنتين فى الدنيا فسيكون أكثر فى الآخرة .

وهذا ما يدل على عدم الفقه ، والتخبط بين سبل الغى والهلكة ، والعمى عن سبيل الرشد والهداية ، ومرجع ذلك وسببه هو مرض التكبر :

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾(1) .

والعجيب أن الكافر ، نراه وقد ذكر الساعة ، واليوم الآخر وأنه يعرف أن هنالك حياة أخرى ، بالرغم من صمت الرجل المؤمن ، وهذا ما يدل على أن أصحاب التيار المادى ، لا ينقصهم العلم ، ولا يمنعهم من الهداية الجهل ، بل هو الجحود والنكران ، ذلك النكران والرفض الذى يقودهم إليه ظلمهم وعلوهم وتكبرهم : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(2) .

---

(1) الأعراف : 146 .
(2) النمل : . 14 .

قراءة ... فى مفردات خطاب دينى

(7) ـ المداخلة الثانية : وهى الفقرة التى يأتى فيها دور الرجل المؤمن فيعرض ردوده .

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِى خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ [1] .

ومن خلال قراءة هذه المداخلة ، وما تحتويه من ردود وأفكار وآراء ، يمكننا أن نضع أيدينا على بعض سمات ومرتكزات الخطاب الدينى .

قضية الآخر :

(أ) لقد عرض الرجل الكافر رأيه فى حرية تامة ، وفى إسهاب ملحوظ ، وتطاول فيه على كل شىء بما فيه ثوابت الرجل المؤمن ، وعقيدته ، ولم يقاطعه الرجل المؤمن .

---

(1) الكهف من الآية (37) إلى الآية (41) .

وهى صورة تشى بمدى أدب صاحبه المؤمن ، وإيمانه بحرية الحوار ، وسماع الرأى الآخر ، إلى أبعد مدى .

وتدبر ما قاله الحبيب - ﷺ - لعتبه بن ربيعة فى بداية الحوار : « **قل يا أبا الوليد أسمع** » . ثم قال له بعد أن فرغ من عروضه : « **أفرغت يا أبا الوليد** » قال : نعم قال : « **فاستمع منى** » قال : أفعل .

وفى هذا الرد الكافى على المرجفين فى مدينة الفكر والإعلام واتهاماتهم بأن التيار الدينى ، أحادى التوجه ، وخطِّى المنهجية فلا يقبل النقد ، ولا يقبل الآخر ، وأنه يستغل القنوات (الديموقراطية) من أجل الوصول ، ثم بعد ذلك سيتعامل من منظور يقيد التعددية ، وينحى المنحى (الأتوقراطى) الاستبدادى الإرغامى ! .

وعندما جلس الرجل المؤمن ، يستمع لصاحبه ، دون مقاطعة ، وكذلك - ﷺ - دليل على قبول التيار الدينى بمبدأ الحوار ، والتعايش مع الآخر .

وهذا ما نلمحه من تكرار كلمة (صاحبه) ، وكذلك فى رحابة صدره - ﷺ - ، وتكنية عتبة بما يحب : **(يا أبا الوليد)** .

وقضية قبول الآخر ، من القضايا التي يجب أن يرفع لواءها التيار الديني ، لأنها إحدى علامات سعة المنهج ومرونة الشريعة وكذلك من علامات نضج حاملي هذا المنهج ، وثقتهم في سمو وعلو فكرتهم التي يدعون إليها ، وهي أيضاً دلالة بارزة على سعة أفق دعاة مشروعه الحضاري .

وإذا كان لهذه القضايا أهميتها في الماضي ، فإن هذه الأهمية تتضاعف في حلقة الصراع والتدافع الحضاري المعاصرة ، أمام تيارات ومشاريع مناوئة يلقي حامليها بالتهم جزافاً على حاملي المشروع الحضاري الإسلامي ، ويتهمونهم بالجمود والتحجر ، وأحادية النظرة ، وعدم قبول الآخر .

هذه القضية ترتبط بقضية أخرى يجب أن يتبناها التيار الديني ، داخلياً ، ألا وهي قضية تعدد الصواب ، وهي نفس قضية مشروعية الاجتهاد في الفروع وضرورة وقوع الخلاف فيها ، واعتبار كل من المتخالفين معذوراً ومثاباً ، وذلك كما نراه في الواقعة المشهورة عندما عاد الحبيب - ﷺ - من غزوة الخندق ووضع السلاح واغتسل ، فأتاه جبريل - عليه السلام - بالأمر الإلهي بغزو (يهود) لغدرهم بالعهود ، فقال : « **قد وضعت السلاح ؟!. والله ما وضعناه ، فاخرج إليهم** » ، قال : « **فإلى أين ؟** » قال : « **ههنا** »

وأشـار إلى (بنى قريظـة)، فخرج النبى - ﷺ -[1] ثم نادى - ﷺ - فى المسلمين : (**ألا لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة**). فسار الناس ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى ، ولم يرد منا ذلك ، فذكروا ذلك للنبى - ﷺ - فلم يُعنف أحداً منهم[2] .

فتدبر موقفه - ﷺ - من المتخالفين ، وإقراره بجواز صحة كل منهما .

وهناك قضية أخرى ، تأتى المناسبة للحديث عنها ، وهى قضية أو فكرة التعددية ، وخاصة الجانب الأهم منها وهو التعددية السياسية لأنها قضية الساعة ، وموضع القدح والنقد من قبل الطاعنين فى المشروع الإسلامى .

والتعددية تعنى فى جوهرها : التسليم بالاختلاف الذى لا يسع عاقلاً إنكاره والتسليم به حقاً للمختلفين لا يملك أحد أو سلطة حرمانهم منه .

---

(1) متفق عليه واللفظ للبخارى .

(2) رواه البخارى .

والتعددية السياسية ، تشير إلى عناصر تنظيم الكيان السياسى بما يمكن التوجهات السياسية والفكرية المختلفة من الحفاظ على أطروحاتها الخاصة بها ، وحقها فى المشاركة فى العملية السياسية بفعالية ، وكذلك حقها فى إنشاء مؤسساتها ومنظماتها الخاصة لتحقيق أهدافها المنشودة .

وللدكتور (يوسف القرضاوى) ـ وهو من أعلام التيار الدينى ودعاة المشروع الحضارى الإسلامى ـ شعار رائع يدلل على أهمية التعددية السياسية ، من باب مشروعية التعددية الفقهية ، فيقول : (المذاهب أحزاب فى الفقه ، كما أن الأحزاب مذاهب فى السياسة) .

وللدكتور(عبدالغفار عزيز)، رأى فى رسالة دكتوراه بعنوان (الدعوة والدولة فى صدر الإسلام) حول تاريخ التعددية السياسية : يرى فيه أن الرسول ـ ﷺ ـ كان زعيماً لمعارضة نظام الحكم فى مكة . كما أنه ـ ﷺ ـ قد سمح بها وفتح مناقشة آراء المعارضة فى (بدر) و(أحُد) وحصار المدينة وغزوة الخندق ، وكان (بلال)ـ رضي الله عنه ـ زعيماً من زعماء المعارضة فى عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ وكان له أتباع وأعوان من بعض كبار الصحابة ـ رضوان

الله عليهم ـ مثل (عبد الرحمن بن عوف) ـ رضي الله عنه ـ وكان الفاروق ـ رضي الله عنه ـ لا يستطيع شيئاً مع الرأى الآخر إلا أن يقول : « اللهم اكفنى بلالاً وأصحابه » (1) .

ومن باب الحيادية ، ومن أجل تفعيل حركة التدافع الفكرى الآرائى ، فمن الواجب أن نورد رأى الحركة الإسلامية المعاصرة حتى يتبين لنا أطروحاتها حول هذه القضية : (لذا فإننا نؤمن بتعدد الأحزاب فى المجتمع الإسلامى ، وأنه لا حاجة لأن تضع السلطة قيوداً من جانبها على تكوين ونشاط الجماعات أو الأحزاب السياسية ، وإنما يترك لكل فئة أن تعلن ما تدعو إليه وتوضح منهجها وما دامت الشريعة الإسلامية هى الدستور الأسمى . كما أننا نرى أن قبول تعدد الأحزاب فى المجتمع الإسلامى على النحو الذى أسلفنا يتضمن قبول تداول السلطة بين الجماعات والأحزاب السياسية وذلك عن طريق انتخابات دورية)(2) .

وبعد فإن الحديث عن تلك القضايا ، والتنويه عنها يأتى فى موضعه ، فإذا تبناها التيار الدينى المعاصر ، ودعاة المشروع

(1) مقتطفات من ندوة مركز الدراسات الحضارية بالقاهرة حول : التعددية السياسية ـ رؤية إسلامية . فى أغسطس 1996م . مركز الإعلام العربى 9ـ76
(2) رسالة : المرأة المسلمة فى المجتمع المسلم ـ والشورى وتعدد الأحزاب 39 ـ40 بتصرف .

الحضارى الإسلامى ، فإنما فيه الدلالة على مدى سعة ومرونة الشريعة ، ورحابة الفكرة ، التى يقوم عليها مشروعهم ، وفى نفس الوقت يتبين الفرق بينه وبين المشاريع الأخرى ، القائمة على الأفكار الاستئصالية لحرية الآخر فلا يسمح له ولو بصحيفة يعلن فيها رأيه ، والتى تقوم أيضاً على النزعه الاستقصائية لوجود الآخر ، فلا يسمح إلا لوجود من يدور فى فلكهم .

الثبات ... وفكر الأزمة !:

(ب) لقد بادر الرجل الكافر بالحوار ، وهو الملمح الذى نستشعر معه أن صاحبه الرجل المؤمن ، كان ثابتاً على أفكاره ، واثقاً من طريقه ، وهو الأمر الذى أثار حفيظة الرجل الكافر فأراد أن يلفت نظره إلى ملكه الواسع ، لعله يتراجع عما يحمله من آراء .

وأمر الثبات على المبدأ بدا واضحاً ، فى خطاب الرجل المؤمن ، عندما قال : ﴿ **لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا** ﴾

وتدبر هذا الموقف : (إن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً ـ قال يوماً وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ـ ﷺ ـ جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ـ رضي الله عنه ـ ورأوا أن أصحاب رسول

الله - ﷺ - يزيدون ويكثرون - فقالوا : بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه) .

وتدبر قوله - ﷺ - فى نهاية المقابلة ، رافضاً عروض عتبة : **(قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك)** .

إنه الثبات على الحق والتمسك بالفكرة ، فقريش تجلس كلها فى ناديها ، ويجلس الداعية وحده ، ورغم ذلك يشعرهم بقوة التحدى والثبات ، وهو الأمر الذى نتج عنه خلخلة الصف المعادى ، مما أدى إلى بروز بعض الأصوات العاقلة داخل معسكر الكفر ، والتى تؤمن بمبدأ الحوار والتفاوض ، وحق الآخر فى التعبير عن رأيه .

إذن فثبات أبناء التيار الدينى ، هو الصخرة التى تتحطم عليها أمواج التيار المادى العاتية فتذهب جفاءً ، ويبقى الحق شامخاً ، لينفع الناس ويعمر الأرض ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾[1] .

والثبات أيضاً هو المنارة التى يؤوب إليها كل شارد ، ويهتدى على نورها كل باحث عن الحقيقة فى أسواق المبادئ

---

(1) الرعد : 17 .

والأفكار ، وقد جلب بعضهم بضاعات مزجاة استوردوها من فتات موائد الغرب !

وهذا الثبات ، إذا اعتبرناه علامة الثقة فى الطريق ، من حيث الفكرة والوسيلة والغاية ، فإنه لا ينفى المرونة الحركية ، والسعة الفكرية ، عند قبول الحوار ، وشجاعة المشاركة فى عملية التدافع الفكرى الآرائى ، لأنه يقى أبناء التيار الدينى من بعض الإصابات التى أصابت العمل الإسلامى فى مقتل ، وأهمها ذلك الفكر الذى جاء إفرازاً لما تعرضت له الحركة الإسلامية (من أزمات ومحن ، ومطاردات ، مما يمكن أن نطلق عليه ، فكر المواجهة أو فكر الأزمة ، الذى جاء ثمرة لظرف وزمن معينين) . وقد لا تكون المشكلة فى فكر الأزمة ، لأنه استجابة طبيعية للمواجهة ، لكن المشكلة فى العقلية التى حاولت تعميمه ، وتخليده على الزمن ، ووقعت فى أزمة الفكر ، وعدم القدرة على الإنتاج الفكرى الملائم والمطلوب للمرحلة ، وبذلك نشأ كثير من الأفراد ، نشأةً غير سوية ، نتيجة التربية غير السوية ، وبسبب الهواجس الأمنية ، وهواجس المواجهة ، فأصبحت تستدعى المواجهة ، وتفترضها ، وتعتبرها الأصل الدائم ، بل ومقياس الصواب فى العمل . لقد افتقدت الحرية فى الفكر ، والحركة ، والممارسة ، واصطحب كل فرد سجّانه ، ومراقبه

الأمنى داخله ، حتى أصبحت فترات الحوار والاسترخاء هى الاستثناء ، وفرصة للاستعداد لجولة جديدة !!! ؟)[1] .

خطوط حمراء !:

(ج) لقد كانت أولى كلمات الرجل المؤمن ، وأشدها ألفاظاً هى دفاعه عن ثوابته العقيدية ، وهى النقطة التى لا تقبل التفاوض والمرونة : ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ؟! ﴾ .

وكأننا به يحذره : وَيْحَكَ لقد تجاوزت الخطوط الحمراء ، بكفرك بالخالق المصور سبحانه ! .

وهى النقطة التى تبين منطلق الرجل المؤمن ، ممثلاً للتيار الدينى ، وهى الإيمان بالله .

وهو المنطلق أو الأصل الذى يتفرع منه كل شىء ، وهو الأساس الذى يُبنى عليه البنيان الصحيح القويم .

فإذا اختل هذا الأصل ، اختل كل شىء ، وإذا ضعف هذا الأساس ، ضعف أو انهار كل البنيان .

---

(1) مراجعات فى الفكر والدعوة والحركة : عمر عبيد حسنة ـ طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى ـ سلسلة قضايا الفكر الإسلامى (7) 116 بتصرف .

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

وعند الحوار ، ومن خلال حرية الرأى ، كل الأمور تكون قابلة للحوار والالتقاء ، إلا ثوابت العقيدة .

لذا كانت تلك الإشارة الحمراء ، التى وضعها الرجل المؤمن ليعلن لصاحبه الكافر ، ألا يتجاوز حدوده ، وحدود الحوار .

وهذا ما يبرر الموقف الصلب للتيار الدينى المعاصر ، من رفض تلك الكتابات العلمانية المادية اللادينية ، وفضح أهدافها وكشف ستر أصحابها .

حاملوا الخير:

(د) ثم يستمر الرجل المؤمن فى حواره ، وعرض أفكاره ، ونقف عند نقطة مهمة ، جاءت على لسانه ، والحوار فى مرحلة ساخنة ، وهى نصيحته المشفقة : ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ لقد (أرشد الرجل المؤمن صاحبه الكافر ، وهو يحاوره إلى التصرف اللائق الصحيح ، الذى

(1) التوبة : 109 .

يشكر فيه ربه ، ويعمل على دوام نعمة الله عليه ، وطالبه بأن يلجأ إلى الله ، وأن يعلق الأمر على مشيئته ، ويجعله مرهوناً بقدرته ، وأن يستمد قوته من قوة الله سبحانه)[1] .

وتأمل هذا السلوك الفريد ، وكيف أن الرجل المؤمن قد راعى حق الصحبة ولو مع الكافر ، ولم يشعر بالصغار أمام ملكه الواسع ، بل أعلن لصاحبه فى اعتزاز وإيمان ، تلك النصيحة الراقية ، الخالصة المخلصة ، فى كيفية الشكر ، وكيفية حفظ نعم الله ؟! .

وذلك من باب مسئوليته ، وتمثيله لتيار جاء ليحمل الخير للبشرية التعيسة الرافضة الجامحة .

ومن باب تلك العاطفة الجياشة التى يحملها دعاة التيار الدينى ، دوماً فى كل عصر ، وفى كل موقف ، حتى لمخالفيهم .

ذلك التيار الذى يحمل شعاراً ، وأمراً ربانياً ، لبث الخير أينما حَلَّ : ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] .

وهذا التيار هو طليعة أمة ، اكتسبت خيريتها من الخروج إلى الناس ، كل الناس ، لتقودهم إلى خيرى الدنيا والآخرة ، أمراً .

---

(1) مع قصص السابقين فى القرآن : د . صلاح الخالدى - طبعة دار القلم - دمشق 2/ 140 .
(2) الحج : 77 .

بالمعروف ، ونهياً عن المنكر ، منطلقة من قاعدتها الإيمانية ، ولتكون شهيدة عليهم : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1] .

وصفة حب الخير وحب فعله ، قد اكتسبها وتربى عليها كل من أقر بأن قائده وزعيمه - ﷺ - الذى وصفه الحق سبحانه ، بأنه منهم ، وأنه حريصٌ عليهم ، وأنه رءوفٌ ورحيمٌ بهم : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2] .

وتذكر فقط مغزى تلك النصيحة المشفقة ، التى جاءت فى سياق الآيات التى تلاها - ﷺ - أمام عتبة ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾[3] .

لقد أعلن - ﷺ - أنه منهم ، ولكن الفرق أو تميزه عنهم ، هو أنه رائد أهله ، رائد يحمل رسالة ربانية ، تدعوهم إلى توحيده سبحانه ، ثم تأخذ بيدهم إلى الإستقامة والهداية .

---

(1) آل عمران : 110 .
(2) التوبة : 128 .
(3) فصلت : 6 .

لذا فإننا لا نستغرب سلوك الرجل المؤمن مع صاحبه .

وكذلك لا نعجب لسلوك رواد التيار الدينى المعاصر مع قومهم ، خاصةً مخالفيهم ، وذلك لأنهم يستمدون فكرتهم وعاطفتهم من معين واحد ، ومن منطلق واحد ، ويكفينا فى هذا المقام ، أن نورد مجرد عينة من خطابهم ، حيث يقولون فى إحدى أدبياتهم : (ونحب كذلك أن يعلم قومنا أنهم أحب إلينا من أنفسنا ، وأنه حبيب إلى هذه النفوس أن تذهب فداءً لعزتهم إن كان فيها الفداء ، وأن تزهق ثمناً لمجدهم وكرامتهم ودينهم وآمالهم إن كان فيها الغناء . وما أوقفنا هذا الموقف منهم إلا هذه العاطفة التى استبدت بقلوبنا ، وملكت علينا مشاعرنا ، فأقضت مضاجعنا ، وأسالت مدامعنا)[1] .

عاشقوا المعالى :

(هـ) ثم ننتقل إلى نقطة أخرى فى خطاب الرجل المؤمن ، عندما قال لصاحبه : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِى خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ .

هكذا فى هدوء ، وبكلمات بسيطة الألفاظ عميقة المعنى يبين له ، خطورة اتهاماته ، وهوان موازينه الأرضية المادية

---

(1) مجموعة الرسائل : رسالة دعوتنا ـ الإمام البنا 13 .

الدونية ، التى يحكم بها على الناس ، وكأننا به يقول له : لعلك أخطأت يا صاحبى عندما نظرت إلىّ من منظور مادى ، فقيمت صاحبك وبخسته ، على أساس قلة ماله ، وقلة ولده ، ولكن الأمر أعمق من تفكيرك ، وأعلى من مستوى إدراكك ، وأسمى من أن تُقَيِّمَه بموازينك الأرضية ، فالأمر كله بيده سبحانه الواهب ومقسم الأرزاق ، وإنى على ثقة من أن لى عنده سبحانه للحسنى والخير ، بل سيؤتينى أفضل مما تملك وذلك فى الدنيا والدار الآخرة ، إن شاء الله تعالى .

ونستشعر من هذه القصة بعض اللمحات التربوية :

منها مدى الرضا الذى يملأ كيان أبناء التيار الدينى ، وعدم الركون إلى الماديات وحطام الدنيا ، وكذلك الثقة فيما عنده سبحانه واللجوء إلى الركن الشديد ، إليه سبحانه ، فهو المثبت وهو الرازق وهو الواهب .

وهذا كله مرجعه إلى قاعدتين إيمانيتين أساسيتين :

أولهما : التربية العميقة على الموازين الربانية ، تلك القضية التى عاتب فيها الحق سبحانه حبيبه - ﷺ - كما جاء فى (سورة عبس) ، عندما انشغل عن (عبد الله بن أم مكتوم) - رضي الله عنه - ببعض كبراء قريش .

ثانيهما : الاهتمام بمعالى الأمور وتلك هى القضية المهمة فى التمايز ، فالنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل .

فمن خلال تلك القاعدتين الإيمانيتين ، ينبعث المسلم ، المؤمن ، التائب ، الآيب ، العامل ، الواعى ، الفاهم ، ذو الهمة العالية ، الذى رآه الشاعر (أحمد محمد الصديق)، فوصفه قائلاً :

يتعالى عن أراجيف الثَّرى . . . نافضاً عنه غبار التهم

يُرسل النجوى وفى أضلاعه . . لوعة التوب وجمْرُ الألم

أين ليل التيه من شمس الضحى ؟ . . لا يعى الأسرار غيرُ المسلم

من تكن عيناهُ للأرض فلن . . . يتسامى . . أبداً للأنجم

فراسة .. يصنعها فقه :

(و) ثم يختم الرجل المؤمن حواره الهادئ ، محذراً صاحبه من الخطر القادم ، من قبَله سبحانه ، ذلك الخطر الذى يأتى دوماً نتيجة لمقدمات معروفَة ، وحصاد لأسباب معلومة ﴿ **وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا** ﴾ .

هكذا ختم حواره ، بنبرة تحذير وإنذار ، معلناً فى ثقة : إن

الله عز وجل المعز المذل ، قادر على أن يوكلك إلى سبب عزتك وبطرك وغـرورك ، ولن ينفعك عندما يرسل ما لم تحـسب له حساباً ، إن الله قادر على أن يهلك جنتيك ويدمرهما . فتوقع يا صاحبى صاعقة مدمرة ، تدمر جنتيك ، وتزيل ما فيهما ، فتصبح كل واحدة منهما تراباً أملساً أجرداً ، أو توقع أن يذهب النهـر الذى بين الجنتـين ، وأن يغـور فى باطن الأرض بأمـره سبحانه ، ولن تستطيع أن تعيده ! .

وهى نظرة مستقبلية استشرافية ، لا يدعى فيها الرجل المؤمن علمه بالغيب ، ولكنها مبنية على قراءة تاريخية ماضوية ، واستقراء لحاضر تشهد مسبباته بالمصير المستقبلى المتوقع .

وهى النظرة التى ألمحنا عنها آنفاً ، والتى لا يمكن أن تصدر إلا عن عقلية مميزة ، عقلية مؤمنة ، قد بلغت الحالة الإدراكية الراشدة ، وهى الحالة أو الصياغة العقلية المنشودة ، واكتسبت أو تكوّن لديها ما يسمى بمنظومة الوعى البشرى .

وهذه الصياغة ـ كما قلنا ـ تقوم على مرتكزات معينة ، تعرف بالثلاثية المعرفية ، وهى فقه جيد للفكرة ، وفقه بصير بالواقع ، وقراءة عميقة للتاريخ .



فلمسنا كم كانت دراية ووعى الرجل المؤمن ، بكل شهود التاريخ البشرى ، وبكل سنن الله عز وجل الإلهية فى الأنفس أى فى عالم الأحياء ، وهى السنن الإلهية الاجتماعية ، وفى الآفاق أى فى عالم المادة ، وهى السنن الإلهية الكونية .

وتوقع لصاحبه الكافر مصيراً ، يفسره ويدركه كل من فقه السنن الإلهية المختلفة ، والتى تعين على قراءة المستقبل من خلال استقراء الحاضر .

ولعله رأى حاضر صاحبه ، وقد انطبقت عليه بعض سننه سبحانه :

منها سنة الله فى الأسباب والمسببات ، أو قانون السببية : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (1)

ومنها سنة الله فى الفتنة والابتلاء ؛ أو قانون الابتلاء : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(2) .

ومنها سنة الله فى الظلم والظالمين ، أو قانون الظلم : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾(3) .

---

(1) الليل : 5ـ10 .
(2) الكهف : 7 .
(3) يونس : 13 .

ومنها سنة الله فى الطغيان والطغاة ، أو قانون الطغاة : ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(1) .

ومنها سنة الله فى بطر النعمة وتغييرها ، أو قانون النعم وتغييرها : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(2) .

ومنها سنة الله فى الذنوب والسيئات ، أو قانون الذنوب والسيئات : ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾(3) .

ومنها سنة الله فى الاستدراج ؛ أو قانون الاستدراج : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(4) .(5)

وتدبر ذلك التحذير الذى جاء فى سياق خطابه ـ ﷺ ـ مع

(1) الفجر : 11ـ14 .
(2) الأنفال : 53 .
(3) الأنفال : 52 .
(4) الأنعام : 44ـ45 .
(5) السنن الإلهية فى الأمم والجماعات والأفراد فى الشريعة الإسلامية : د . عبد الكريم زيدان ـ طبعة مؤسسة الرسالة 21ـ235 بتصرف .

(عُتبة) أثناء حوارهما : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[1] .

وهو نفس التحذير الذى ورد فى خطاب مؤمن آل فرعون ، عندما قال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴾[2] .

من هذا الملمح ندرك كيف أن فقرة الختام فى حوار الرجل المؤمن ، والتى صدقتها حوادث القصة بعدها ، تعتبر أخطر ركائز الخطاب الدينى ، بل وتعتبر حجر الزاوية .

تلك الركيزة التى تفسر لنا أن من بعض أسرار وأسباب وصف المؤمن بالفراسة ، وأنه يرى بنور الله سبحانه ، ذلك لأنه يفقه سننه سبحانه الإلهية ، ومن خلال هذا الفقه فإنه يستطيع أن يملك الرؤية المستقبلية الاستشرافية ، وذلك باستقراء حوادث الماضى ، ومن خلال فقه الواقع والأسباب الحاضرة .

وكذلك يشعر المؤمن بالأنس مع الوجود كله ، ويشعر أنه وكل الوجود ، عبارة عن ستار لقدر الله ، يتم بهم على الأرض قدر الله وحركة السنن الإلهية . وأنه كأحد الخلائق ، التى يجرى بهم الخالق سبحانه سننه وأقداره ، وبحركتهم تتم العملية التغييرية .

---

(1) فصلت : 13 .   (2) غافر : 30 .

وتدبر كيف أن الرجل المؤمن ، قد أخبر صاحبه أن السماء وكذلك الأرض ، ستشاركان فى عملية التغيير والهدم لملكه !

أما غير المؤمن ، فهو ينتسب إلى تيار ، قد وصفه سبحانه بعدم الفقه ، أي بعدم فقه سننه سبحانه فى الكون والحياة : ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾(1) .

المصير !؛

(8) ـ الجولة أو المشهد الثالث : وفيه تعرض القصة ، مصير الرجل الكافر ، كما توقعه الرجل المؤمن :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ .

وهو مشهد يعرض حقيقتين جليتين :

الأولى : حقيقة الثمر الكثير والزينة العظيمة والجنتين ، بل وكل الملك العريض ، وقد دمر عن آخره ، وتحطم من كل جانب وزال منه كل شيء ، وأصبحت الجنة خاوية من كل نماء ، وفارغة من كل حياة .

(1) الأنفال : 65 .

والحقيقة الثانية : هي موقف الرجل الكافر وقد وقف يقلب كفيه نادماً آسفاً علي حظه العاثر وجهده الضائع وماله المحطم . وأخذ يتندم علي إشراكه بالله ، ويعترف بربوبيته ووحدانيته ، وقد أخذ يستعيذ من شركه ولكن بعد فوات الأوان . ولم ينفعه صحبه ولو كانت مع صالحين ، فلكل مصيره ، ولكل شأنٌ يغنيه ولم ينفعه نصرة نصير أمام قدر الله سبحانه ، وأمام التعرض لسننه الإلهية .

وحول هذه الجولة السريعة الأحداث ، نتوقف مع بعض الملامح التربوية ، وذلك من خلال نفس نظرتنا المنهجية للقصة :

شاهدٌ .. علي عصره ! :

(أ) لقد عرض المشهد مصير الرجل الكافر ، ولم يتعرض لموقف الرجل المؤمن ، ولعلها ـ والله أعلم ـ لفتة طيبة ، تبين أن الرجل المؤمن قد عرض خطابه ، وتوقع ما حدث لصاحبه ، وقضي الأمر ، وانتهي دوره كناصحٍ أمين ولو لمخالفيه ، لأنه الرائد الذي يكذب أهله .

وأمر آخر نستشعره ، وكأن الله عز وجل يحفظ المؤمن بعيداً عن مشهد الإنتقام الإلهي ، والدمار والحطام ، ويبرأ به عن مواقف الندم والخسارة .

ووقف الرجل المؤمن شاهداً أميناً علي عصر ومرحلة من الصراع بين الفكرة وحامليها ، وبين المادية وحامليها .

وصدق الرجل المؤمن في شهادته ، وصدقه الحق سبحانه .

وجلال موقف الشهادة ، خاصة في موقف يوم القيامة عندما يبعث الحق سبحانه من كل أمة شهيداً عليها ، وهو رسول كل أمة : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾[1] .

فإن المؤمن أيضا من هذه الأمة القوامة الراشدة ، يستشعر أنه مكرم من قبل الحق سبحانه ، بوضعه في المكانة الرائدة ، بجعله من الشهداء علي الناس : ﴿ **وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾[2] .

(فالرسول ـ ﷺ ـ يشهد علي هذه الأمة ، ويحدد نهجها واتجاهها ، ويقرر صوابها وخطأها ، وهي تشهد علي الناس بمثل هذا ، فهي القوّامة علي البشرية بعد نبيها ، وهي الوصية علي الناس بموازين شريعتها ، وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة . ولن تكون كذلك إلا وهي أمينة علي منهجها العريض المتصل

(1) النساء : 41 .
(2) الحج : 78 .

الوشائج ، المختار من الله . ولقد ظلت هذه الأمة وصية على البشرية طالما استمسكت بذلك المنهج الإلهى وطبقته فى حياتها الواقعية . حتى إذا انحرفت عنه ، وتخلت عن تكاليفه ، ردها الله عن مكان القيادة إلى مكان التابع فى ذيل القافلة وما تزال ، ولن تزال حتى تعود إلى هذا الأمر الذى اجتباها له الله)[1] .

ولهذا فإن حملة التيار الدينى ، يجب أن يستشعروا دورهم القيادى الريادى ، وتبعاته الشاقة ، لأنهم يمثلون الأمة التى جعلها الله من الشهداء على الناس ، وذلك بشرط الالتزام بالمنهج والجهاد فى سبيله .

تجهيل .. لمن يتجاهل ! :

(ب) لقد بُنى الفعل المجهول وحُذف فاعله (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) حتى (إن صاحب الجنتين لم يعرف الفاعل ، ولم يعرف السبب وذهبت به الظنون كل مذهب . وليختلف المراقبين والمشاهدين والمحللين فى تقدير الفاعل ، وقليل منهم سيفطن إلى السبب الإيمانى والعامل الربانى . وكما بينا أن إسناد الأفعال إليه سبحانه فى العطاء والإنعام كما فى (وجعلنا) ، فإنه ليس من

---

(1) فى ظلال القرآن : سيد قطب 17/ 2446 .

المناسب أن يسند إذهاب النعمة ، وإزالتها عن صاحبها إلى الله ، مع أن الله حكيم عادل فى هذا الإذهاب ـ والله أعلم ـ)[1] .

وهذا الملمح الطيب من شأنه أن يجعل قضية فقه السنن الإلهية من القضايا التى يحتكر فهمها المؤمنون .

وتدبر ما قيل عن حرب (العاشر من رمضان)، فلقد شاط التيار المادى العلمانى ولم يزل ، ضد فكرة أن من عوامل النصر بعد العدة المادية ـ هو صدق اللجوء إليه سبحانه ، وفى رأيهم إنما هو العتاد المادى والعدة التدريبية فقط بل ويتهكمون على صيحة (الله أكبر) !!!

بل ويزيد التهكم عندما يسمعون أن الكوارث والزلازل ، إنما تأتى نتيجة لما اقترفته أيدى البشر ، ويغيب عنهم ، هذه السنة الإلهية الاجتماعية ، والتى لا يفقهها إلا المؤمنون : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[2] .

وستظل هذه الحقائق غائبة ومُهمَّشة بل ومستهجنة من قبل

(1) مع قصص السابقين فى القرآن : د . صلاح الخالدى ـ طبعة دار القلم ـ دمشق 2/ 142 بتصرف .
(2) الروم : 41 .

التيار المادى العلمانى ، حتى يثيبون إلى نهجه سبحانه .

فمن يتجاهل عن طريق الحق ، ويتنكب الطريق ، يُجهِّله الحق سبحانه .

والجزاء من جنس العمل ! .

ضيقٌ ... وسعة :

(ج) لقد عمم اللفظ القرآنى كلمة ﴿ مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ ، وجعلها (كلمة عامة ، شاملة لكل صور الإنفاق المادية والمعنوية أنفق عليها الكثير من المال ، أنفق عليها من وقته ، أنفق عليها الكثير من جهده البدنى ، أنفق عليها الكثير من مشاريعه ومخططاته وبرامجه وخبراته ، أنفق عليها الكثير من أحلامه وخيالاته ، وآماله وأمنياته ، أنفق عليها حياته التى عاش من أجلها ، وها هو كل ما أنفقه أمامه يراه ويتعامل معه دماراً وخسارة وفناء . لذلك ندم ندامة بالغة ، وأصبح يقلب كفيه ، وهو يسترجع هذه النفقات ، ويستحضر تلك الخسائر)[1] .

لقد اختار الرجل الكافر جنتيه ، ورضى بأن تظل كل أحلامه مرتبطه بالأرض وثقلتها ، بالطين ودونيته ، بالماديات ،

---

(1) مع قصص السابقين فى القرآن : د . صلاح الخالدى ـ طبعة دار القلم ـ دمشق 2/ 143 ـ144 بتصرف .

والماديات فقط حتى جاء الدمار لهذا المكمن الذى اعتز به ، واغتر به .

لقد اختار مستوى معين حصر فيه أحلامه ، وعاش له حياته لقد اختار حدوداً معينة ، حصر فيها سعيه ، وحصر فيها آماله ورتب عليها غاياته فى هذه الحياة ، فاستحالت هذه النظرة إلى نوع من الضيق الشامل ، وهو ضيق الدنيا ، ذلك الضيق المادى الذى استحال عند الرجل الكافر بمرور الأيام وبطول المعاشرة إلى ضيق آخر ، ضيق فكرى ، فأحدث فى عقليته عملية ضمور شاملة وحركة استلاب مهينة .

حتى إذا تحطمت تلك الغاية ، تحطم معها كل شىء ! .

ولو سمح مرة واحدة لأحلامه بالخروج من هذا الإسار المادى الرهيب ، وتخطى هذا السياج الذى بناه حول جنتيه ، لكان لعقليته أيضاً أن تخرج من هذا الضمور الفكرى ، ولوجد البدائل ، فعندما يتحطم شىء سيجد العزاء فى البديل الآخر ، ولكنه استمراء الضيق .

لهذا كانت نهايته بمجرد نهاية جنتيه .

وتدبر ما ذكرناه آنفاً ، كيف أن (ربعى بن عامر)، أراد ذات يوم أن ينقذ الفرس من هذا الضيق معلناً لهم مهمة الأمة المسلمة

الراشدة : (إن الله قد ابتعثنا لنخرج من شاء من العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة) وتدبر قول ربعى : (ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة) ، فهى إذن دعوة لإعمار الدنيا والآخرة معاً أو هى عملية انتشال من الضيق الشامل إلى السعة الشاملة الخالدة .

ولكنها العقلية المادية التى تحصر نفسها فى الدنيا وزينتها ، وتستمرئ الضيق المادى ، وتعيش للأحلام الدنيوية ، ولا ترى وراء الأفق كل الآمال فى عيشة أبدية خالدة فى جنة ، لا تعرف المحدودية ، جنة عرضها السموات والأرض ، قد جهزها الحق سبحانه وأعدها لنوعية معينة من عباده ، ثم دعا إليها بنداء علوى كريم : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

وإنما هو الفرق بين الفكر المادى والفكر الدينى .

ليس لى أرض وطين . . . موطنى حق ودين

إنـه نـور مبيـن . . . إنـه باللـه أكـبر

الدروب الساطعة للطائعين

والمنايا واقعة بالسادرين

والأمانى الرائعة للعالمين

(1) آل عمران : 133 .

وقفة .. على الأطلال :

(د) ولقد كان موقف الرجل الكافر ، فى محنته موقفاً عصيباً مهيناً ، لقد واجه المحنة المدمرة منفرداً ، ﴿**وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً**﴾ لقد كانت المحنة مضاعفة فلقد ضرب بنصائح صاحبه المؤمن الأمين عرض الحائط ، واغتر بماديات لا تنفع حين لا ينفع الندم ، وواجه المصيبة وحيداً من أى نصير ، عارياً من كل نصرة .

وإن كان مجرد الشعور بأن الله معك فى السراء والضراء ، نعمة فأكرم بها من نعمة ، تهون بجوارها كل النعم ، وتتصاغر أمامها كل النقم .

ففى المحن وأمام الصعاب يعز المعين ، ويندر الرفيق ، ويفتقد الصديق .

وإذا كان المعين هو الله فأكرم به من معين سبحانه ، خاصة عند الصعاب ، وأثناء المحن ، فهنالك تكون الحاجة لعونه سبحانه وتثبيته ، ﴿ **هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا** ﴾ .

وهى الوقفة القرآنية التى تجىء وكأنها استراحة قصيرة ، يستمع فيها القارئ ، وكل من يشاهد أحداث المشهد الثالث ،

مشـهد المصير ، بينما يقف على أطلال الجنتين ، ويرى الكافر مكوّماً مهموماً محسوراً على إحدى تلال جنتيه ، يستمع إلى تعليق خاطف ، ودرس سريع ، مجمل ومفيد .

تلك الو قفه التى تبين لكل السامعين ، فضل من يتولى الله سبحانه ويعمل على نشر دعوته ، وحمل منهجه ، فهذه الولاية هى الخير ، وعاقبتها هى الخير والفلاح .

جوهر الصراع ٤ :

(9) ـ الجولة أو المشهد الرابع : وهى الجولة التى تعرض التعقيبات القرآنية على القصة : ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾ .

وهى الجولة التى تأتى على هيئة فقرتين :

الفقرة الأولى : عبارة عن مثل يضربه الحق سبحانه للحياة الدنيا ، فهى عبارة عن مرحلة قصيرة زائلة ، سريعة الهلاك ، فهى كماء ينزل من السماء ، فلا يجرى ولا يسيل ، ولكن يختلط بنبات الأرض ، والنبات لا يجد الفرصة للنمو ولا للنضوج ، وفجأة يصبح هشيماً ، عشباً يابساً مقطعاً ، لا يقوى على

الصمود أمام الرياح ، فتنسفه وتفرقه فى الفضاء .

ولقد جاءت (الفاء) التى تفيد الترتيب مع التعقيب الفورى السريع ، لتؤكد على سرعة زوال الحياة .

ومن وراء الأحداث ، تبدو القدرة الإلهية ، تحرك الجموع ، وتحرك الوجود ، وكأن الخلق ، كل الخلق مجرد ستار لأقدار الخالق .

ويأتى هذا المثل ، تعقيباً ، على قصة صاحب الجنتين وما حدث له ولجنتيه ، ولآماله ، ولغاياته .

ويؤكد أن أى تيار يحمل الفكر العلمانى ، المادى الدنيوى ، الدونى ، محكوم عليه من قبل الحق سبحانه ، بالزوال والدمار ولو تلألأ لسويعات ، ولو تحكم لمراحل حياتية دنيوية زائلة .

فمن يرتبط بالزائل ، سيزول معه ، ولو بعد حين .

وهذا الحين هو ما يقرره سبحانه ، فى موعده المحدد ، بناءً على سننه الإلهية التى لا تتبدل ولا تحابى ، ولا تتخلف .

والفقرة الأخرى : تأتى وكأنها قانون قرآنى عام ، وسنة إلهية ثابتة . وكأنها عملية تركيز وتقعيد لأهداف القصة :

(المال) بأنواعه وصوره و(البنون)، هما عبارة عن زينة لهذه

الحياة الدنيا ، عبارة عن قشرة خارجية تطلى بها ، لتأخذ بعقول البشر ، فيفتن من يفتن ، ويثبت من يثبته الحق سبحانه ، ولا يدرك الحقيقة وجوهرها إلا من يرى بنور الله .

والمنهج الإسلامى ، منهج الخروج من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، فهو لا ينهى عن الخروج الأول ، الخروج إلى سعة الدنيا ، للتمتع بالمتاع الدنيوى ، بالزينة فى حدود الطيبات . ولكنه لا يهمل الخروج الثانى ، الخروج إلى سعة الآخرة ، والعمل لها .

لذا فهو يعطى هذه الزينة الدنيوية قيمتها التى تستحقها ، على أساس ميزان الخلود ، ميزان السماء ، ميزان الآخرة .

والقيمة الحقيقة هى للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات .

وهو توجيه علوى كريم ، إلى التمتع بزينة الدنيا ، بحيث لا تهمل الباقيات الصالحات ، والتى هى منهج الخير الذى يتحرك به المسلم فى حياته ، لأنها خير أثراً ، وخير ما يعمل له العاملون وهى الأبقى .

فهى الباقية حياتياً ، فيراها المسلم فى مسيرته الحياتية ،

ويستشعر أثرها فى نفسه ، وفى أسرته ، فى زوجته وفى ذريته ، وفيمن حوله ، فى علاقاته ، وفى دعوته .

وهى الباقية أخروياً ، فتؤهله إلى الخلود والبقاء السرمدى فى جنة رب العالمين .

وتأتى هذه السنة الإلهية تلخص منهج الرجل الكافر ونظرته للحياة ومنهج الرجل المؤمن وفكرته ونظرته للحياة .

وتؤكد الفرق بين الزينة الزائلة ، والقيم الباقية .

الفرق بين المنهج الزائل ، والمنهج الباقى الخالد .

الفرق بين التيار الزائل ، والتيار الباقى .

الفرق بين الزبد الذى يذهب جُفاءً، وما يمكث فى الأرض ليعمرها بالخير والصلاح والنماء ، لينفع الناس ، كل الناس .

فلقد زال الرجل الكافر ، وزال (عُتبة بن ربيعة) ، وزال ما يمثلونه من تيارات مادية لا دينية . فى كل عصر وفى كل الأرض ! .

وبقى الصالحون فى كل عصر ورفع الله ذكرهم فى الأولين والآخرين ، كما رفع للرجل المؤمن ذكره ، وخلّد موقفه العظيم

ورفع الحق ذكر محمد ـ ﷺ ـ كما امتن عليه سبحانه : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[1] .

وسيرفع الله ذكر كل من سار على نهجه ، وسلك سبيل المؤمنين ، وجاهد مع العاملين تحت لواء تيار الحق .

وستبقى الفكرة .

لأنها مناط تميز الإنسان ، المكرم بمنطقه وفكره من قِبَله سبحانه ! .

حتى يرث الحق سبحانه الأرض ومن عليها .

وهذا هو جوهر الصراع الخالد السرمدي ، بين الفكرة والمادة .

---

(1) الشرح : 4 .

• قطوف تربوية حول قصة ذى القرنين •

تحديات مرحلة التمكين

وهى القصة التى وردت فى سورة (الكهف) في هذه الآيات ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن

يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ .

وهى قصة الرجل الطواف ، أو العبد الصالح ـ وقيل أنه نبى ـ ، الذي وهبه الحق سبحانه ، كل عوامل التسخير والتمكين وهى العلم والحكمة والسلطان ، فأحسن استغلالها ، ولم يقعد على هذه القدرة التسخيرية المجردة ، بل أبدع وتفنن في فقهها ، وتطبيقها . وتطويرها ، وذلك على هدى من سننه سبحانه الإلهية ، وتحرك في أرجاء الأرض ، وحرك المجموع من حوله ، فكان نتيجة لهذا التعاضد بين القيادة والجنود ، أو بين الفرد والجماعة ، أن عظمت فتوحاته ، وملك الأرض ، وجاب أركانها في رحلات ثلاث ، إلي الشرق وإلي الغرب ، وإلي الوسط ، أو إلي الشمال ، وبنى السد في وجه (يأجوج ومأجوج) .

وكان حكمه الصالح يقوم علي دعامات ثلاث، هى :

الدعامة الأولي : (القوة المعرفية) ، وهي ربانية الفكرة التى كان ينطلق منها ، ومن المنطلق الإيماني الذي يحركه ، وهو الدعوة إلي الله عز وجل .

الدعامة الثانية : (القوة المادية) ، كما يتضح من حركته في كل أرجاء المعمورة ، وظهوره علي كل الأمم ، وبنائه السد العظيم واستغلاله لكل الطاقات المادية والبشرية .

الدعامة الثالثة : (القوة الأخلاقية) ، كما يتضح من سلوكه الرفيع ، ومنهجه الأخلاقى ، في تعامله مع كل الشعوب ، علي اختلاف أحوالهم ، ثم في رده كل خير يحوزه إلي الله جل وعلا ورحمته ، وفضله ، وذلك لعلمه بأنه راجع إليه سبحانه ، فمحاسبه علي ما كُلِّف به من أمانة الاستخلاف والإعمار .

لذا فإن قراءة هذه القصة العظيمة ، وتدبر سيرة هذا العبد الصالح ، تعطى لنا نموذجاً رفيعاً لما يجب أن يكون عليه كل من يسَّرَ له الحق سبحانه أسباب التمكين ، واستخلفه ، وأوكل إليه أمانة إعمار الأرض ، فأحسن الاستخلاف .

تحديات كونية !

وسنتاول في دراستنا لهذه القصة بعونه تعالي ، ومن خلال منظور خاص ، وبرؤية منهجية شاملة كاملة ، جانب مهم ، وهي قضية حيوية وخالدة ، ألا وهي :

قضية تحديات مرحلة التمكين ، ومنهج الجيل الربانى المنشود ، أو التيار الدينى في الإعمار والاستخلاف .

وهي قضية مهمة ، وهي موضوع كل ساعة .

وقضية العصر ، وكل عصر .

وهي مجرد محاولة متواضعة ، لقراءة منهجية متواضعة ، في صفحات ناصعة ، من ملف جولة حضارية عظيمة .

أو هي نظرة استقرائية في إحدي الأدبيات العظيمة ، التي تشهد علي عصر عظيم ، شهدته الأرض ، بل وشهده كل هذا الوجود الكبير .

ومن خلال تلك القراءة المنهجية في سفر المستخلفين الربانيين . نستطيع أن نجد إجابة علي أسئلة حائرة ، تتردد كثيراً هذه الأيام علي ألسنة البشرية الحائرة المعذبة :

كيف يبدو المستقبل ؟

ومن هو الذي سيحدد هذا المستقبل ؟

وما هي منطلقاته ؟ وما هي سماته المنشودة ؟

ومن هو الأحق بهذا الدور الاستخلافي الإعماري في الأرض ؟

وعندما تختلط الأوراق في عصر ، قد سيطر علي عقل البشرية فيه أرتال من السحرة ، وتحجَّم فيه دور الراهب .

أو كما يقول الشيخ (الغزالى) - رحمه الله - قد كثر فيه السحرة وغاب عنه عصا موسى - عليه السلام - .

ينتج عن ذلك حالة من زوغان للأبصار ، وانطماس للرؤية ، وذلك بين أطروحات غريبة ، ومنطلقات غربية تريد أن تضع على عيون البشرية ، غمامة من التجهيل والقناعة الفكرية ، فى عملية خادعة ماكرة تؤدى إلى ترسيخ لأمر واقع ، بأن ما يحدث الآن ، فى نهائيات التسعينات ، من القرن العشرين الميلادى ، والتوجه إلى تطبيق النظام العالمى الجديد ، الأحادى الفكرة والتوجه ، وظهور المشروع الغربى ، هو نهاية التاريخ ، حيث يسود فيه الرجل الأبيض الغربى .

بل ويصورون هذا النموذج الغربى ، بأنه الأحق بامتلاك كل المقدرات ليس فقط على وجه الأرض بل فى الكون كله ! حتى أنهم قد أدخلوا فى روع البشرية أن الخطر والتحدى قد تجاوز نطاق الأرض ، وأخذوا يكرسون الجهود على حرب من نوع جديد ، وتحد خارج نطاق التصور والسيطرة ، فدخلوا بالبشرية المعذبة المغيبة ً مرحلة حرب النجوم والكواكب !

ثم أخذوا يخططون ، وبطريقة وقائية لحفظ هذا الإرث النكد ، بمحاربة كل مشروع يناهض مشروعهم الغربى ، خاصة إذا كانت منطلقاته تنبع من الفكرة الربانية الإسلامية .

ونحن لا نأتى بهذه الحقائق من عندنا ، أو من خلال النظرة ذات التفسير التآمرى للأحداث ـ كما يزعمون ـ بل بناءً على نظرة استقرائية ، إلى أخطر نظريتين ظهرتا فى هذه الحقبة الحاضرة ، وبعد نهاية الحرب الباردة وقد اكتسبتا شهرة واسعة وأثارتا جدلاً يحتدّ الآن :

الأولى : نظرية (فرانسيس فوكوياما) عن « نهاية التاريخ » وهى تتحدث عن انتهاء الحرب الباردة بهزيمة الاتحاد السوفيتى ، وسقوط النظرية الشيوعية والأيديولوجية الماركسية بطريقة سلمية ، وانتصار العالم الغربى وعلى رأسه الولايات المتحدة ، وظهور الرأسمالية الغربية ، وهو ما يعرف بالنظام العالمى الجديد .

فاستقر حال العالم ، وانتهى التاريخ بغلبة الليبرالية .

وظهور المشروع الغربى .

الثانية : نظرية (صموئيل هنتنجتون) ، عن « صراع الحضارات » ، وهى تتحدث عن صراع مستقبلى ، يتخطى نطاق الإقليمية ، ولا يقوم بين الدول ، بل بين الحضارات المختلفة ، ومن بينها الحضارة الإسلامية ونظيرتها الغربية .

وهى تحذر من أخطار حرب مستقبلية فكرية باردة ، أو حرب حارة تعيد التاريخ من جديد .

فتدبر منطلقات المشروع الغربى ، ونوعية الأفكار التى تحرك الغرب وتوجهاته ، وتضيء إشارات حمراء ، أمام صناع القرار فى الغرب ، لكيفية التعامل مع التحديات الفكرية القادمة ، والحروب الأيديولوجية المستقبلية .

وتدبر كيف أن العقليات ، فى الفكر الغربى لها فضلها واحترامها ، ويُسمع لها ، بل يُخطط المستقبل بناءً على أطروحاتها ! .

وتدبر أيضاً كيف يتعاملون مع المستقبل ، ويخططون لمشروعهم ، وفى نفس الوقت لا يهملون الإجراءات الوقائية ؟!

وتأمل كيف يرسخون ويحفظون مشروعهم ، من خطر الذبول ، والانزواء الحضارى ؟! .

أى قبل التفكير فى حالة المد والانسياح ، يفكرون فى حالة الجذر والانحسار !

وفى أثناء التخطيط للنهوض الحضارى يضعون أعينهم ويحركون عقلياتهم ، للبحث حول وسائل الوقاية ، من أخطار التردى والسقوط الحضارى ؟!

ركائز قبول التحدى :

والمسلم أيضا له استقراءاته ، ومنطلقاته فى فقه الأحداث .

فعندما يقرأ الأطروحات ، وينظر إلى بنى أمته المذهولين ، فيردد مستغرباً :

يا حسرةً على العباد !!!؟؟؟

إلى متى تظل أمتنا تسودها أمراض مرحلة الغثائية ، وهى نفسية العبيد ، وطبيعة القطيع ، وعقلية العوام ؟!

لماذا تلهث وراء كل ما هو غربى ، وغريب عن تربتها وأصالتها ؟!

ونحن عندما نقول المسلم ، فنقصد به المسلم الواعى ، فهو المرشح الآن ليعيد الأمور إلى نصابها ، ويعيد ترتيب العقلية المسلمة ، ويعيد صياغتها من جديد . حتى تستطيع أمته أن تجابه هذا الخطر الهائج المائج ، وتواجه هذا التحدى الحضارى ، وتنافس فى حلبة الصراع والتدافع الحضارى التغييرى المعاصر .

فهو الوحيد الذى يملك كل ركائز التغيير ، وعوامل التحدى ، لأنه :

أولاً : يملك ذلك الشعاع الربانى ، والفرقان الذى لا يظهر مدى أصالته وقوته ، إلا فى حالة اختلاط الأوراق ، وذهاب المعايير ، وعند مفترق الطرق ، وعند غبش الرؤية ، ألا وهو

شعاع التقوى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (1) .

ثانياً : يدرك أن خروج الأمة لا يكون إلا باستدعاء الحقيقة من منابعها الأصلية ، من الكتاب والسنة ، الذى لا يأتيهما الباطل ولا يزيغ عنهما إلا هالك .

فهما الرصيد الخالد والمخزون المعرفى الربانى لأمة الدعوة والرسالة ، وهو الكنز الذى لا ينضب ، والغنى بالأفكار المحركة للنهوض الحضارى ، والقابل لأى استدعاء واستقراء .

ثالثاً : يملك الرؤية المنهجية الشاملة ، التى تفسر الأحداث على هدى من السنن الإلهية . سواء السنن الإلهية الكونية ، وهى التى تنظم وتتحكم فى عالم المادة أى فى الآفاق ، أو السنن الإلهية الاجتماعية . وهى التى تنظم حركة الحياة والأحياء .

وهو ما يُعرف بفقه الحياة ، أو الفقة الاجتماعى الحضارى ، الذى يقوم على دراسة عوامل السقوط والنهوض الحضارى والذى يمكن أن يكتسب من السير فى الأرض واستقراء التاريخ وفتح ملفات الأمم السابقة ، لاستجلاء سننه سبحانه ، لفقهها ، ولمعرفة حسن تسخيرها ، للإفادة منه فى العملية الاستخلافية ،

---

(1) الأنفال : 29 .

فى قراءة الحاضر ، واستشراف المستقبل : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾(1) .

رابعاً : يرى أن هذه الفتن ، والأطروحات الشائهة النكدة ، ما هى إلا منبهات ومستفزات أو محرضات حضارية ، تؤدى إلى ايقاظ الأمة من وهدتها الحضارية ، فتلملم شعثها ، وتستدعى مخزونها المعرفى من الأفكار ، حتى تواجه هذا الخطر .

وكما قلنا فإن من جوانب حركة التدافع الحضارى الشاملة ، جانب آخر مهم ، بل ولا نتجاوز الحقيقة إذا اعتبرناه قاعدة هذه الحركة التدافعية الحضارية ، ألا وهو حركة التدافع الفكرى الآرائى .

لذا فإن المسلم الواعى عندما يقرأ هذه الأطروحات الشائهة التى ذكرناها ، يدرك مدى هشاشتها عندما يستدعى الحقائق من رصيده ومخزونه المعرفى الربانى الأصيل ـ الذى ذكرناه ـ وعلى هدى ركيزة مهمة ،ألا وهى فقه السنن الإلهية الاجتماعية .

وعندما يقبل المسلم التحدى ويبدأ المنافسة فى حلبة التدافع الفكرى الآرائى ، معتمداً عليه سبحانه ، ثم على استدعاء المخزون المعرفى ، فإنه يلزمه رؤيتين :

---

(1) الأنعام : 11 .

أولاً : رؤية بصيرة واعية تقوم على فقه السنن الإلهية الاجتماعية

كما يتضح من ذكر هاتين السنتين ، على سبيل المثال لا الحصر :

(أ) سنة التداول الحضارى : التى تبين ديمومة حركة التغيير التاريخى ، والتبادل الحضارى ، حتى يرث الحق سبحانه الأرض ومن عليها : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[1] .

(ب) سنة التدافع الحضارى : التى تبين ديمومة الصراع والتدافع الحضارى ، حتى يستقر الأمر بوجود الأمة الخيِّرة البانية التى تبنى ولا تدمر ، وتعدل ولا تظلم ، فتصلح الأرض ولا تفسدها . وهذا من فضله سبحانه على البشرية ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[2] .

فيجد الجواب والرد الشافى ، على من يزعم أن نهاية التاريخ تكون بقيام هذا النظام العالمى الجديد الأحادى النظرة ، الشيطانى التوجه ، والازدواجى المعايير والأحكام .

---

(1) آل عمران : 140 .
(2) البقرة : 251 .

ثانياً : رؤية واعية تقوم على دراسة القصص القرآنى ، وما تمثله من أمثلة تطبيقية واقعية حقيقية ، لتبرهن على مصداقية وفاعلية هذه السنن الإلهية .

فما أحوجنا لفقه دور القصة القرآنية ، بما تحمله من رصيد فكرى .

فالفكرة هى المنطلق الأول فى عملية النهوض الحضارى .

وذلك لأن سلسلة التحولات الحضارية ، إنما تنبع أو تنشأ من فكرة أو مبدأ ، وهذا المبدأ بدوره يُنشئ تحولاً نفسياً فى نفوس البشر ، وهذا بدوره يُنشئ دافعاً داخلياً ، فيؤدى إلى سلوك اجتماعى ، وهذا التغيير السلوكى الاجتماعى ، يفرز تحولاً اجتماعياً ، واقتصادياً ، وسياسياً .

والقصة تلعب دوراً خطيراً فى عملية البناء الفكرى .

والبناء الفكرى هو مرتكز التحول النفسى للأمة .

والتحول النفسى هو أصل التحول الاجتماعى ، وذلك هو مرتكز التغيير الحضارى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[1] .

---

(1) الرعد : 11 .

وحتى لا تكون عملية استدعاء المخزون المعرفى الربانى ، مجرد حركة رد فعل تمليها الظروف والتحديات .

فما أحوجنا لأن ندرك أن حجر الزاوية ، وأساس كل هذه التحولات العظيمة ، إنما يأتى من خلال المحافظة على الورد القرآنى اليومى الثابت ، فهو يقوم بعملية تربوية دائمة ، حيث يقوم بعملية استدعائية دائمة للمخزون المعرفى ، فيؤدى إلى الربط المستمر بين العقلية المسلمة والفكرة .

نحو .. ترتيب للعقلية المسلمة :

وقصة ذى القرنين ، وردت فى سورة الكهف .

وتدبر كيف أن الحبيب ﷺ ، كان يوصى بقراءة سورة الكهف كل جمعة .

وإذا علمنا أنها تحتوى على كم من القصص القرآنى العظيم .

لأدركنا أن لها من التأثير والدور الخطير فى اكتساب الرصيد العظيم من الفقه الحضارى الاجتماعى ، والذى يكتسب من فقه السنن الإلهية الاجتماعية .

وكيف أنها تحتوى من المعطيات ـ خاصة من خلال تدبر القصص ـ ما تقوم بعملية ترتيب وإعادة صياغة دائمة لعقل الأمة

وكما قلنا فإن القصص هو العنصر الغالب فى سورة (الكهف) .

ومن خلاله يعرض القرآن الكريم خلاصة لسننه سبحانه الاجتماعية ، التى تنظم بعض أحوال وصور الصراع الدائم والخالد بين الحق وأهله ، وبين الباطل وأهله ، فى عدة جولات حضارية ، تصور الحق وأهله فى مراحل مختلفة ، مرحلة الرفض والاستئصال ومرحلة التعايش فى مناخ يسمح بهامش الحرية ، ومرحلة التربية والتكوين ، ثم فى مرحلة التمكين :

(أ) ففى قصة (أصحاب الكهف) ، صورة الحق عندما يكون مطارداً ، مرفوضاً من التعايش والوجود مع الباطل .

وكيف أن أهل الباطل دوماً تحركهم الأفكار الاستئصالية لرأى الآخر ، وتسيطر عليهم التوجهات الاستقصائية لوجود الآخر .

لهذا فإن أهل الحق لا يسعهم إلا أن يعلنوا اعتزالهم ، فراراً بدينهم ، وحفظاً لفكرتهم وحماية لأنفسهم .

(ب) وفى قصة (صاحب الجنتين) ، صورة الحق عندما يوجد فى مرحلة اجتماعية ، تتيح قدراً من حرية التنفس الفكرى، فتسمح بمساحة لكل التيارات للتعبير عن توجهاتهم .

وهى مرحلة يجد فيها أصحاب الحق فرصة الحوار وتقديم الحجج ، أمام أهل الباطل ، لفضح أفكارهم ، ولكشف الستار عن سلوكياتهم وتوجهاتهم ، وتحذيرهم من المصير المحتوم .

وقد أوضحنا فى دراسة سابقة لهذه القصة ، حركة وجوهر الصراع الخالد بين الفكرة والمادة ، وذلك من خلال قراءة فى جولة من التدافع الفكرى الآرائى ، وتجلية لمفردات الخطاب الدينى ، ومفردات الخطاب اللادينى المادى العلمانى .

(ج) وفى قصة موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح ، صورة الحق فى مرحلة أو صورة أخرى مهمة جداً ، وهى ما تختص بمجال التربية أو فى مجال التكوين ، حيث تعكس بعض ضوابط وركائز التعامل الداخلى بين أصحاب الحق بعضهم البعض .

منها أن يقتنع كل صاحب حق بأن وجوده لا يلغى وجود غيره بل إن هنالك من صور للحق الهادئ ، التى تحتاج لدعاية ، ولتجلية ، فيتبين منها أنها أعمق وأحق بالتعبير عن نفسها بجوار الصور الأخرى .

وهذا الضابط يدعونا إلى التنبيه على نقطة مهمة جداً ، وهى أهمية أن لا يستشعر القائمون على نشاط أى مؤسسة دعوية أن دورهم أعظم وأولى من أدوار الآخرين فى المؤسسات الأخرى .

بل إن البركة تأتى من التعاضد والتكامل والتنسيق .

ومنها أن يوقن الدعاة أن وراء أى حدث من الأحداث ، دوما أبعاد أخرى ، وحكم إلهية بليغة ، وذلك يدعونا ألا نحكم على الظواهر فى أى أمر .

ومنها ما يجب من سلوكيات فى المجال التربوى ، يحتاجها الدعاة ، خاصة خلق (التواضع) ، سواء عند التلقى والأخذ ، أو عند التلقين والعطاء .

(د) وفى قصة (ذى القرنين) ، ـ التى بين أيدينا ـ توضح صورة الحق فى أخطر مراحله وأشدها مسؤولية ، وأكثرها حرجاً وأعظمها تحدياً ، وهى مرحلة التمكين .

وأنها توضح الصورة الطيبة لسلوكيات أصحاب الحق عندما يُمكَّن لهم ، فتكون فرصة للاطلاع على صفحات ناصعة من ملف من ملفات سفر أدب المستخلفين ، يوضح منهجهم الإعمارى والاستخلافى فى الأرض .

إذن فالسورة من خلال القصص ، تساهم فى العملية الاستدعائية لمخزون الأمة المعرفى ، وتساعد فى عملية البناء الفكرى للأمة .

ما أشبه الليلة بالبارحة :

لقد كان مما ورد فى سبب نزول هذه السورة وورود هذه القصة ما ذكره ابن إسحاق : « حدثنى شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود فى المدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى أتيا المدينة ، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله - ﷺ - ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، وقالا : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لكى تخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال : فقالوا لهم : سلوه عن فتية ذهبوا إلى الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ماهو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوِّل فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم ، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور ، فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله - ﷺ - فقالوا : يا محمد أخبرنا ، فسألوه عما

أمروهم به فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ : « **أخبركم غداً عما سألتم عنه** » ولم يستثن ، ـ أى لم يقل إن شاء الله ـ فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ـ ﷺ ـ خمس عشرة ليلة لا يحدث له فى ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبرائيل ـ عليه السلام ـ حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمداً غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا فيها لم يخبرنا بشئ عما سألناه عنه ، حتى أحزن رسول الله ـ ﷺ ـ مكث الوحى عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل ـ عليه السلام ـ من الله عز وجل بسورة (أصحاب الكهف) فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطوّاف وقول الله عز وجل : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ** ﴾(1) .

ولنا مع هذه الواقعة ، عدة وقفات تأملية :

(أ) تدبر هذا الجهد المضنى الذى قام به هذا الطاغية (النضر ابن الحارث) رائد الدعوة الإعلامية ضد الدعوة الإسلامية وهو يضرب أكباد الإبل لمئات الأميال مع زميله ، للوقوف على خبر هذا الدين الجديد الذى قلب موازين قريش ، ولقد جاء ذكر جهوده الإعلامية والأمنية المناوئة للمسيرة الدعوية فى سياق

(1) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير 3 / 76 .

نزول آية سورة الأنفال : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1] عندما سافر إلى بلاد الفرس وتعلم بعض القصص والأساطير ثم جاء ليعلن حرب التشويش والتعتيم والتشكيك ضد ما يرويه الحبيب - ﷺ - عن ربه .

لذلك فنحن لا نستغرب مثل تلك الجهود الإعلامية والتعاونيات الأمنية ، والخطط الدولية لتجفيف منابع وروافد الصحوة المباركة ، وقد جمعت كل الفصائل الحاقدة من منافقين وعلمانيين ونصارى ويهود وملحدين وغيرهم ضد مسيرة الدعوة المعاصرة ، وقد حملوا لواءً يتميز بالتجميع والترتيب والتنظيم والعلو .

وقدوتهم (فرعون) الذى رفع نفس اللواء من قبل ضد (موسى) - عليه السلام - وصاح فى قوى الشر ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾[2] .

ولم تزل تلك الخطط العالمية ومحاولة دراسة ظواهر الصحوة والممثلة فى الندوات والمؤتمرات والجهود الإعلامية

---

(1) الأنفال : 31 .
(2) طه : 64 .

لمراكز صناعة الفكر ـ على قدم وساق وربما شارك فيها مفكرون مسلمون !!

ولكننا نستغرب غيبة أهل الحق عن هذا الميدان ، وإهمالهم لباب الدراسات الجادة وصناعة الفكر وتوجيهه .

ولم يدخلوا عليهم الباب !؟

(ب) وكذلك تدبر هذا العنت والجهد الغريب الذى تحمله الوفد القرشى برئاسة رائد الحرب الإعلامية ضد الدعوة (النضر ابن الحارث) فى رحلاته المتعددة لمحاربة هذا الدين الجديد ، وكذلك جهود من على شاكلته من مسؤولى محاربة الأنشطة الدعوية فى كل عصر وفى كل مكان .

وتأمل معه كسل البعض ممن ينتمى إلى ركب الدعوة ، وقد شق عليه مجرد خطوات يسيرة فى سبيل الخير ، ونشر الدعوة .

(ج) الشئ المدهش فى أهل الباطل والممثل بقريش آنذاك ، أنهم انتدبوا رجلاً معيناً ليترأس وفوداً جابت أقطار الأرض ، والتقت بكل الثقافات ، وألَّبت قوى الحقد ، وذلك لدراسة خطر هذا الدين القادم الجديد ودراسة سبل مقاومته ، وطرق محاربته وتجفيف منابعه .

وذلك هو ديدن أعداء الدعوة ، فى كل مكان وفى كل زمان

وتدبر أحـوال أهل الحق ، وإهمـالـهم لمبـدأ التـخـصص ، ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب .

فهم يراوحون بين إهمال لمبدأ دراسة العدو وبين محاباة تبعد أهل التخصص ، حتى باتت العقوبة ، والجهل الخططى ، تهدد صناعـة القـرار وتنهى الجـهـود الدعـوية بالفـشل والوهن والانتكاسات !

وغـدت المسـيرة الدعوية تراوح بعـيداً ، عن مرحلة قطف الثمرة !

(د) تدبر موقف اليهود من الدعوة ومن صاحبها - ﷺ - منذ نشأتها .

فلقـد كـان من المعلوم عند العـرب أنهم أعلم الناس بالحق وبالدين الجـديد وبموعـد إشراقه ، وهذا مـا دفع قريش لإرسـال وفدهم للاستعلام والاستفسار عنه ، وكانوا أحق الناس بالإيمان به وأولى بالاستجابه له قبل غيرهم ، ولكنهم كانوا ولا يزالون أشد الناس عداوة للذين آمنوا : ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾[1] وتأمل موقفهم العدائى حتى بعد ظهور الحق مع هذا الدين الخالد ، وقد حملوا لواء الحرب ضده

---

(1) المائدة : 82 .

وضـد أهله ولا يزالون . ولذلك وصـفـهم القـرآن الكريم بـأنهم (المغضوب عليهم) لمعرفتهم الحق ورغم هذا حاربوه ورفضوه . واكتفوا بموقف النافخ فى أوار حرب التشكيك والتضليل ضده وضد أهله على مر التاريخ .

والعجيب أن نرى البعض ممن ابتعد عن منهج الله عز وجل وقد لهث وراء سرب السلام معهم .

وقد نسى معركة أمته الحضارية وركيزتها العقيدية مع يهود ونسى أيضاً طبيعة يهود وجبلتهم الحاقدة الفاسدة المفسدة .

(هـ) فى تأخـر الوحى عنه ـ ﷺ ـ تلك المدة، ثم يأتيـه بالإجابة الشافية .

وفى هذا درس تربوى للداعيـة ، أن لا ينشـغل بالرد على حرب الشبهات ومعارك التشكيك ، وأن لا يقع فى فخاخ الفكر الدفاعى وأن لا يضطره عدوه إلى الانزواء فى خنادق ومواقع هذا الفكر . وأن لا ينشغل عن مهمته وخطواته المحسوبة وأهدافه الكبار .

وفى هذا دلالة أيضاً على صدق رسالته ـ ﷺ ـ ولو كان الأمر بيده أو من عندياته لأتى بالرد سريعاً ، وما عانى تلك المدة الصعبة .

رعاية .. وتوجيه :

ثم تبدأ هذه القصة بمطلع ودود آنس ، يحدث فيه الحق سبحانه الرسول ـ ﷺ ـ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ إن قريش وبتوجيه من يهود ، يسألونك عن ذلك الرجل الطواف ، فقل لهم إنى سأسرد عليكم بعضاً من سيرته وخبره .

وهو مطلع يوحي ببعض الدروس والقواعد المهمة :

(أ) مدي الود والرعاية التي يلقاها ـ ﷺ ـ منه سبحانه ، وكأنه سبحانه يقول له : إنهم يسألونك عن خبر ذي القرنين ، وعندنا العلم الكافي به ، والقضية ليست حبهم للعلم والمعرفة ، ولكنه التعجيز والاختيار ، والتعويق .

وكذلك نستشعر مع ذلك الود ، مغزي كامة (قل) التى تفيد الرعاية والتوجيه الدائم ، والتربية المستمرة .

وكأن القيادة ـ والممثلة فيه ـ ﷺ ـ وكذلك كل من سار علي دربه ، في حاجة دائمة لرعاية وتوجيه وتربية ونماء .

(ب) ونستشعر أيضاً مغزي آخر لكلمة (قل) ، وهو أن هذا الجواب ملقن من قبل الحق سبحانه ، إلي نبيه ـ ﷺ ـ ليقف أمام

تساؤلات قريش ومن يحركهم من يهود ، وهذا ما يبين ما هية مصدر التلقي ، ومصدر المعرفة لهذه الأمة ، عندما تواجه مثل هذا التحدي الفكري ، والخطر المعرفي في كل عصر .

فأي مواجهة لا ترتكز علي هذه القواعد فهي مواجهة محكوم عليها بالفشل ، وأي تحدٍ لا ينطلق منها فهو تحدٍ قاصر ومنكوص .

وكما قلنا إن نهوض هذه الأمة ، لا يكون إلا باستدعاء الحقيقة من منابعها الأصلية ، من الكتاب والسنة ؛ الذي لا يأتيهما الباطل . ولا يزيغ عنهما إلا هالك .

فهما الرصيد الخالد والمخزون المعرفي الرباني لأمة الدعوة والرسالة ؛ وهو النبع الأصيل الغني بالأفكار المحركة للنهوض الحضاري ، والقابل لأي عملية استدعائية استقرائية .

(ج) وقد تعمد النص القرآني أن تبقي شخصية (ذي القرنين) شخصية مجهولة ، ولغزاً محيراً . رغم محاولات بعض المفسرين الجهيدة في معرفة هذه الشخصية :

فمهنم من قال : أنه كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام [1] .

---

(1) ذو القرنين : القائد الفاتح والحاكم الصالح : محمد خير رمضان ـ مطبعة دار القلم 248 .

ومنهم من قال : إنه « الإسكندر الأكبر المقدونى » رغم أنه وثنى ، وذو القرنين رجل مؤمن بالله ، وعبد صالح[1] .

ومنهم من قال : إنه ملك عربى من ملوك حمير[2] .

ومنهم من رجح أنه الملك الفارسى (كورش)[3]، [4] .

ولكن مصدرنا الصحيح للمعرفة ، وهو المصدر الموثوق به لمخزون الأمة المعرفى ، وهو النص القرآنى ـ وكذلك الأحاديث الشريفة الصحيحة ـ لا يذكر شيئاً عن شخصية (ذى القرنين) ولا عن زمانه أو مكانه ، وهذه هى السمة المطردة فى قصص القرآن . فالتسجيل التاريخى ليس هو المقصود . إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة . والعبرة تتحق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان فى أغلب الأحيان[5] .

وهذا يذكرنا بقاعدة عظيمة فى المنهج ، وهى ربط العقلية المسلمة بالفكرة لا بالشخص .

---

(1) المصدر السابق 84 ـ 90 .
(2) المصدر السابق 165 ـ 207 .
(3) يسألونك عن ذى القرنين : أبى الكلام آزاد 88 .
(4) مع قصص السابقين فى القرآن : د . صلاح عبد الفتاح الخالدى ـ طبعة دار القلم ـ دمشق 2/ 254 ـ 275 بتصرف .
(5) فى ظلال القرآن : سيد قطب 16/ 2289 .

والتمحور حول الفكرة ، هى سمة راقية ، عندما تشيع داخل المؤسسات الدعوية والتربوية ، لأنها تمثل قمة النضج فى حياة الإنسان أفراداً وجماعات ، حيث يصل كل فرد إلى مرحلة الترتيب الصحيح لأولوياته ، فتصبح الفكرة مقدمة على أى أمور أو مصالح أو ارتباطات أخرى فى حياته .

فإذا كان الطفل يمر بمراحل اجتماعية ثلاثة هى : مرحلة التمحور حول الأشياء ، ثم مرحلة التمحور حول الأشخاص ، ثم مرحلة التمحور حول الأفكار ، وكذلك المجتمعات تمر بنفس المراحل فى تطورها الحضارى(1) .

فإننا نؤكد أن ذلك واقع أيضاً فى حياة الداعية ، وإن تطوره التربوى والدعوى ، يمر بنفس المراحل ، حيث يبلغ قمة النضج عندما يصبح تمحوره حول الفكرة التى يؤمن بها ، والمبدأ الذى يحمله ، ويتعدى مرحلة التأثر والتمحور حول الوسائل والأشياء والماديات ، ومرحلة التمحور حول الأشخاص .

وتدبر مغزى هذا التوجيه الربانى ، لخير الأجيال ، حينما أصابهم الخَور عندما سرت إشاعة مقتله ـ ﷺ ـ أثناء محنة

---

(1) مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى : مالك بن نبى ـ طبعة دار الفكر 26 ـ 40 بتصرف .

(أحُد) ، وذلك حتى يرتبطوا بالفكرة لا الشخص ولو كان خير من وطئ الحصى - ﷺ - : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(1) .

وتدبر موقف (أنس بن النضر) - رضي الله عنه - أثناء تلك المحنة خاصة بعد إشاعة مقتله - ﷺ - وكيف حمل اللواء وحرك الصحابة ، ليقوموا ويقاتلوا ويموتوا على ما مات عليه - ﷺ - وقاتل حتى استشهد . فكانت مبادرة وحركة ذاتية فريدة ، تبين مدى نضجه وفهمه لضرورة الجهاد والموت فى سبيل الفكرة لا الأشخاص .

وهو المعلم التربوى العظيم ، الذى يذكر المربين بأهمية الوصول بالفرد إلى هذه الدرجة من النضج البشرى ، عندما يُعاد صياغة عقليته ، لتتحرر من أسر وقيود الوسائل والأشياء والماديات ومن التأثر بالشخصيات ، إلى التمحور حول الفكرة التى يؤمن بها ، والمبدأ الذى يحمله .

وإذا نضج الفرد ، نضج المناخ الاجتماعى السائد ،

---

(1) آل عمران : 144 .

وبالتـــالى يرتقـــى الســـلوك الاجتمـــاعى للأفـــراد .

وهذا من شأنه أن يؤدى إلى تفعيل العملية التربوية ، التى تهدف إلى التربية بالقدوة .

ولكى تستقيم هذه التربية ، (نقول : إن الضرورة العقلية والتربوية تقتضى أن يكون الأنبياء من البشر ، وتجرى عليهم سنة الحياة التى تجرى على سائر البشر ، ولولا أنهم من البشر ، لما استحقوا تربوياً أن يكونوا نماذج للاقتداء وتجسيد المثل الأعلى . لقد قدست وخلدت القيم الإسلامية ، معانى البطولة ، ولم تقدس البطل ، ولم تقدس النماذج لأشخاصهم ، وإنما قدست القيم التى يمثلونها . أما عندما ترتكس العملية التربوية ويسود التقليد الجماعى ، والمحاكاة ، ويتوقف التجديد والإبداع ، والاجتهاد ، والنقد ، والتقويم ، عندما تتحول رموز العمل إلى أوثان تفسد العملية التربوية والدعوية . حيث تتحول بعض القيادات والرموز إلى معصومين . وينقلب الأتباع إلى إقطاعات بشرية تسيطر عليها وتحركها روح القطيع . ولعل هذا من أخطر الإصابات الداخلية فى مجال تربية الأفراد ، وبناء شخصياتهم ، الأمر الذى يضلل القيادات ، بإخراجها عن بشريتها لتصبح عقبة

أمام كل نمو ، وتصويب ، وارتقاء ، وتفكير حر ، والانتهاء من ثمَّ إلى ضرب من التصنيم ، والتوثين ، والآبائية المعطلة ، التى حذر القرآن من السقوط فيها[1] .

(د) وفى قوله سبحانه : ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ أى سأذكر لكم من سيرته خبراً :

ونستشعر من هذه العملية المعرفية التلقينية ، أن الحق سبحانه يريد ـ والله أعلم ـ أن يضع زمام المبادرة بيد الرسول ـ ﷺ ـ فلا يقع فى فخاخ الفكر الدفاعى ، بل يقص عليهم ما يجعله فى موقف الهجوم ، والتحدى ، وذلك بأن يعرض القصة من خلال رؤيته هو ، ومن خلال ما يبرز فكرته ، ويفيد قضيته ، وهو أن يقص عليهم من القصة مقتطفات حول النموذج العادل فى التمكين ، والسيرة الصالحة لمن مكّنه الله سبحانه فأحسن الخلافة ، وأشاع العمران والخير فى المعمورة كلها .

يقص عليهم وهم مَنْ هم ؛ إنهم قريش التى كان لها من الهيبة والقوة والمنعة والمكانة فى جزيرة العرب كلها ، فبلغت الأوج فى الجانب المادى . ولكنها لم تحسن شكر هذه النعم

---

(1) مراجعات فى الفكر والدعوة والحركة : عمر عبيد حسنة ـ المعهد العالمى للفكر الإسلامى ـ سلسلة قضايا الفكر الإسلامى (7) 71ـ74 بتصرف .

الربانية . وتدبر كيف أن الحق سبحانه قد أشار إلى قصة (سبأ) ، الذين لم يحسنوا الخلافة فيما مكنهم الله عز وجل فيه ، فكانت رسالة إلى قريش ، أن يحذروا نفس المصير .

ولنتأمل التعقيبات القرآنية التى جاءت حول القصة : ﴿ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾[1] .

ويقص كذلك على محركى الفتنة ، وهم يهود ، وكيف كان العرب يعرفون أنهم يملكون . . المعرفة والعلم ، ولكنهم نكصوا ونكلوا عن حمل أمانة الفكر والتوجيه والتمكين المعرفى .

لذا كان الجواب ذو فوائد متعددة ، حيث جاء بالرد المفحم ، والذى كان يجهله العرب بما فيهم قيادتهم القرشية ، وكان يعرفه فقط يهود ، ولكنهم جحدوا واستعلوا بالباطل والنكران .

---

(1) سبأ : 19ـ22 .

وجاء الرد كذلك ليلقن المتسائلين ، والدرس العظيم من سيرة العبد الصالح ، والرجل الطواف ، الذي ملك الأرض كلها وليست الجزيرة فقط ، ولكنه أحسن حمل الأمانة .

وهو الدرس العظيم لكل من اختار حمل أمانة التمكين لهذا الدين ، وقبل المواجهة والتحدي الحضاري ، ألا يستدرج إلي المعارك الجانبية ، وأن تكون كل حركته وأفكاره تصب في سبيل بيان قضيته .

وسنحاول أن نبرز أهم المعالم أو الركائز المهمة والمطلوبة في عملية التمكين .

ركيزتا التمكين :

١ **الركيزة الأولي** : التوفيق الإلهى « إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شئ سبباً » ثم تعرض الآيات أن الله عز وجل قد مكن لذي القرنين في الأرض . ثم عرض مظاهر هذا التمكين ، بأنه سبحانه قد وهبه كل الوسائل والطرق التي تحقق له هذا التمكين ، وهي المظاهر المادية ، التي تشمل الأسباب العلمية والفكرية والسياسية والصناعية والاقتصادية والعسكرية .

وهذا هو أول المعالم أو الركائز المهمة في عملية التمكين ، وهو التوفيق الإلهي ،أو دور القدرة الإلهية في هذه العملية التغييرية الحضارية .

وهو الدور الذي يتم من خلال قاعدتين إيمانيتين أساسيتين :

الأولي : حول الفاعل الحقيقى لأحداث التمكين : إن هنالك إرادة إلهية . وهو قدر الله عز وجل ، ومشيئته في نشوء هذه العملية التغييرية التمكينية الحضارية .

وهذا ما نلمحه من مغزي كلمة (مكنا له) ، لقد ورد فعل (مكَّن . يُمكِّن) ، ثلاث عشرة مرة في القرآن : مكَّنا . مكَّناهم مكني . نمكن . وليمكنن . وعندما ننظر في هذا الفعل في المرات الثلاث عشرة كلها ، نري أنه مسند إلي الله وحده ، وأن الفاعل له هو الله ، أما المفعول به ، فهو الذي يمكن الله له ، أو الذين يمكن الله لهم . وهذه القاعدة البيانية تقودنا إلي قاعدة إيمانية اعتقادية ، ذات بعد حضاري هي أن الله هو الذي يمكن للقادة والزعماء والحكام ، وأن الله هو الذي يمكن للأقوام والأمم والشعوب والدول . وأن الله هو سبحانه الذي يقدر الأحداث ، ويشاء الوقائع ، ويدبر الأمور ، وهذه الحقيقة قد يغفل عنها بعض الناس ، وهم يبحثون أسباب قيام الدول ، وعوامل إندحارها . إنه لا يقع حدث إلا بإذن الله ، ولا تنشأ حضارة إلا بإذن الله)[1] .

---

(1) مع قصص السابقين في القرآن : د . صلاح الخالدى ـ طبعة دار القلم ـ دمشق 2 / 321 ـ 323 بتصرف .

الثانية: كيفية حدوث عملية التمكين : إن هذه الإرادة الإلهية ، تتم في دنيا البشر بالطريقة الطبيعية ، دون معجزات ، وتقع بالتدريج دون تعسف ؛ فيتم قدر الله عز وجل في عملية التمكين بجهد البشر ، ومن خلال الإمكانيات التي يهبها لهم الحق سبحانه .

أى حسب فعل وجهد واجتهاد البشر بشرط الأخذ بالأسباب المؤدية إلي ذلك .

وهو الدرس الذي يبين للعاملين في كل جيل ، أن هناك علاقة بين الأسباب والمسببات ، بين الوسائل والغايات ، بين المقدمة والنتائج .

أو بمعني أبسط أن تتم العملية التغييرية الحضارية ؛ من خلال مطابقة الجهد والعمل والوسائل والأسباب لسننه سبحانه الإلهية في الكون والحياة .

فأى إنجاز حضارى له سنن ؛ أى شروط ثابتة ، لا تتغير ، وقواعد عاملة ، مضطردة ، لا تحابى : ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ**

أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾(1)

إيجابية ... منضبطة :

الركيزة الثانية : الدور البشرى . "فأتبع سبباً" . ثم توضح القصة ، أن (ذا القرنين) قد أحسن إستغلال تلك الأسباب التى وهبها الحق سبحانه له ، بل وطورها وتفنن فى تنميتها ، وتطبيقها وتوظيفها .

وقد ورد هذا الخبر عن (ذى القرنين) خلال سياق القصة ثلاث مرات ، أثناء رحلاته الثلاث إلى المغرب ، والمشرق . والشمال .

ونستشعر من هذا أن (ذا القرنين) قد بلغ الأوج فى النضوج الفكرى والعملى ، فكان مثالاً رفيعاً فى حسن حمل أمانة التكليف والإستخلاف والإعمار ، وذلك من نواحٍ عدة :

أولها : فقهه للسنن الإلهية . وذلك لأنــه فهم تلك الأسباب الموهوبة ، وقبلها وانظبــط معهــا ، فلم يهملها ، أو يصطدم معها .

ثانيها : أنه قد أحسن إستغلال تلك السنن فى مرحلته

---

(1) النساء 123

التمكينية ، الراشدة ؛ أثناء رحلاته المظفرة ، ولم يكتف بهذه الأسباب الموهوبة له ، بل أدخل عليها التطوير .

وهذا ما يبين مدى النضج والرشد العقلى والفكرى الذى وصل إليه هذا العبد الصالح ، حتى امتلك تلك العقلية المبدعة .

ثالثها : أن سلوكه هذا لم يَكُ حماسة عارضة أو فورة مؤقتة بل كان ديدناً ثابتاً ، ومنهجاً دائماً ، وذلك عندما نتأمل أن القصة قد أوردت عبارة أنه قد أتبع الأسباب ثلاث مرات . وهذا مما يدل على ثباته المستمر ، وطول نفسه ، ونضجه ورشده .

رابعها : أنه كان يحمل عقلية متجددة ، وحيوية ، قابلة للتطور والنمو ، ويتميز بالإبداع الفكرى والمادى .

وذلك نستشعره من تكرار عبارة أنه (أتبع سبباً) . مما يدل على أنه كان يتطور من مرحلة إلى مرحلة ، ويبدع من رحلة إلى أخرى حسب ما يحصل عليه من أسباب ووسائل تمكينية .

أى أنه بتجدده وإبداعه قد أعطى درساً رفعياً فى حسن التعامل مع المتغيرات فى كل مرحلة ، مع التزامه بثوابته . وذلك فى توازن مبهر .

وكم من أفراد وجماعات ركنت إلى الثوابت فقط ، فطوتها أحداث التاريخ التى لا تعرف الركون !؟

وكم من أفراد ، وجماعات انبهرت بمتغيرات الحركة التغييرية التاريخية ، فانسلخت عن جذورها ، وفقدت أصالتها!

والعاصم من ذلك التخبط ـ بعد الاعتماد على توفيقه سبحانه ـ وهو التوازن بين الالتزام بالثوابت ، من جانب ، وحسن التعامل مع متغيرات كل مرحلة ، والمرونة فى قبول معطياتها ، من جانب آخر .

والتوازن بين الثوابت والمتغيرات ، له معنى آخر ، وهو التوازن بين الأصالة والمعاصرة .

خامسها : أنه كان يحمل قناعة ثابتة بفاعليته كفرد وقدوة ، وكذلك قناعته بفاعلية المجموع ، من حوله فتعاون وتفاعل معهم فى منظومة إعمارية خيرة .

لأن عملية التغيير الحضارى لا تتم إلا من خلال عملية التحول النفسى للأفراد ، وبالتالى المجتمع .

وعملية التحول النفسى لا يستطيع القيام بها فرد بل المجموع وتأمل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[1] .

سادسها : وهو المحصلة للنواحى السابقة ، وهو قناعة (ذى القرنين) باهمية ذاتية الفرد ، وإيجابيته ، وأخذه بزمام المبادرة

---

(1) الرعد : 11 .

فى التحولات الحضارية ، وفى ناموسية التغيير التاريخى للأمم . خاصة إذا كان قدوة أو كان قائداً .

سابعها : أنه كان عادلاً ، وكان يشعر بآلام رعاياه ، على مختلف أحوالهم ، ولا نقول مجرد آلام الأمة الواحدة . ولم يحابى أحداً على حساب أحد ، أو طائفة على حساب طائفة ، أو أمة على حساب أمة ، وذلك لأنه لم يستقر فى مكان واحد بل جاب مغرب الشمس ، ومشرقها ، وشمال الأرض ، أو وسطها وكان ثابتاً فى معاملته مع الجميع .

وسمة العدل هى من أبرز ضوابط إيجابية (ذى القرنين) .

وهذه الملامح التى نستشعرها من مواقف (ذى القرنين) ، إنما تُقعِّد وتبرز أهمية الدور البشرى ، ومعالم هذا الدور ، بل وخطورته فى عملية التمكين والتداول الحضارى .

ملامح ... عامة :

ثم تبدأ القصة فى عرض سريع وملخص ، لرحلات (ذى القرنين) الثلاث .

ونلاحظ أو نستشعر بعض الملامح العامة حول هذه الرحلات :

(أ) أنها شملت نوعيات مختلفة من الأمم ، ربما أوردتها القصة ، كمجرد عينات للأمم والدول الكثيرة التى فتحها (ذو القرنين)، فتكون مجرد أمثلة لنوعيات الشعوب والدول والأمم فى كل عصر :

فنجد منها الأمة القوية ، المتقدمة ، الظالمة الكافرة الجائرة .

ونجد منها الأمة المتخلفة أو المنسيّة، الفقيرة مادياً ، الجاهلة فكرياً .

ونجد منها الأمة القوية مالياً ، ولكنها متخلفة وعاجزة حضارياً ، ومقهورة ، ومغلوبة عسكرياً ، ومُبتزّة اقتصادياً من غيرها .

(ب) أن (ذا القرنين) قد تحرك دونما حدود ، ولم تُحدُّه عوائق وهذا مما يدل على عالمية رسالته ، وسمو فكرته ، وسعة حَركته .

(ج) إن السمة العامة لمسيرة هذا الرجل ، ترتكز على دعائم ثلاثة :

أولاً : امتلاكه للقوة المعرفية ، وهى ربانية الفكرة التى ينطلق منها .

ثانياً : امتلاكه للقوة المادية ،وهى التى تعطيه المرونة فى

التحرك والتعامل مع الأحـداث حسب ظروفها ، وحسب الواقع .

ثالثاً : امتلاكه للقوة الأخلاقية ، وهى التى كانت تظلل حركته ، وتصبغ تعاملاته الداخلية مع جيشه ، والخارجية مع البلاد المفتوحة .

أمة ... جائرة :

وتبدأ رحلة أو جولة (ذى القرنين) الأولى ، إلى أقصى الغرب نحو مغرب الشمس : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا** ﴾ .

لقد تحرك (ذو القرنين)، ووصل إلى أقصى الغرب ، وحسب علمه ، فلقد رأى الشمس تغرب فى أرض مكونة أو عبارة عن طين أسود ، فظن أن هذا هو مغرب الشمس . ووجد عند هذه المنطقة أمة عظيمة من بنى آدم ، ففتح تلك الأرض ، ومكنه الحق سبحانه فيهم ، وأظهره عليهم ، وحكَّمه فيهم . وخيَّره الحق سبحانه فى مصيرهم ، فإن شاء عذب ، فقتل

وسبى ، وإن شاء عفى وعاملهم بالحسنى ، فمنٌ أو فدى . ومن هذه النقطة رأى البعض أن (ذا القرنين) كان نبياً . وكان تصرف (ذى القرنين) غاية فى العدل ، حيث رتب تصرفه ، حسب نوعية البشر ، وحسب موقف كل فئة ، من دعوة الله عز وجل .

ولقد كانت هذه الأمة المغلوبة على قسمين أو فئتين :

الفئة الأولى : وهى النوعية الكافرة الظالمة .

الفئة الثانية : وهى النوعية المؤمنة الصالحة .

وكان رأى (ذى القرنين)، أن من ظلم ، واستمر على كفره وشركه بربه ، فسوف يعاقب ويعذب ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً فظيعاً ، وهو عذاب اليوم الآخر .

وأما من آمن ، وعبد الله وحده ، فسيلقى الجزاء الحسن فى اليوم الآخر ، وسيعامل بالمعروف والحسنى فى الدنيا ؛ أى فى حمايته وفى دولته .

وعندما نتدبر هذه الرحلة الجهادية ، ونتأمل سلوك ذلك الفاتح العظيم ، يمكننا أن نخرج ببعض الملامح التربوية ، التى نعتبرها مفاتيح فى فهم شخصية (ذى القرنين)وفى فهم توجهات ما يمثله من تيار يحمل الفكرة الربانية ، عندما يظهره الله فى حلبة الصراع الحضارى ويواجه تحديات مرحلة التمكين .

لقد مثلت تلك الرحلة ، المواجهة مع أمة كافرة جائرة وظالمة وهو تحد من النوع المادى والفكرى والأخلاقى .

ويمكن اعتبار تلك الأمة مثالاً ، لكل أمة تملك نفس المقدرات المادية المتقدمة ، وتحمل نفس الصفات ، وهى الكفر والجور والظلم فى كل عصر .

ترى ماذا كان سلوك ذلك المجاهد الربانى والفاتح العظيم ، مع هذا التحدى ؟!

وكيف أنه فى هذا الموقف يمثل موقف التيار الدينى ، أو الجيل الربانى المنشود ، عندما يُمكَّن له ، ويواجه تحديات مرحلة التمكين مع هذه النوعية من الأمم ؟!

أولاً : بدأ (ذو القرنين)، بهذه المواجهة ، مع هذه النوعية من الأمم ، ومع هذه الجبهة القوية بالذات ، ولم يقعد بل ذهب إليهم فى عقر دارهم . وهذا ما يدل على قوته وشجاعته وثقته العظيمة فى ربه ، ثم فى جيشه ثم فى نفسه .

ولعله من البديهيات العسكرية والتخطيطية ، أن تبدأ المواجهة مع أقوى التحصينات ، وأصعب الجبهات .

ويدل ذلك على قضية مهمة جداً ، ألا وهى أهمية امتلاك زمام المبادرة .

وتدبر قولته - ﷺ - عقب غزوة الخندق ، معلناً دخوله مرحلة المبادرة : "**الآن نغزوهم ولا يغزونا**" .(1)

ولعلها من العوامل المهمة التى أضفت الهيبة على (ذى القرنين) وجيشه .

حيث نجح فى مرحلة التحدى المادى مع هذه الأمة .

وتجاوز أول اختبار لقوته المادية .

ثانياً : لقد سار (ذو القرنين) إلى الغرب ، ولم يتوقف فى حركته وجهاده فى سبيل الله ، حتى رأى كما وصلت إليه معرفته أن هذا المكان هو آخر أو أقصى مكان يمكن أن يصل إليه أو يبلغه بشر ، حيث ظن أن هذا هو مغرب الشمس فلا مكان بعده .

وهو من باب أن (ذا القرنين) قد استغل كل ما وهبه الحق سبحانه من أسباب التمكين ، وأنه سار وتحرك إلى أقصى مكان يراه حسب معرفته .

وهو ما يوحى بأن كل من اختاره الحق سبحانه لحمل أمانة التمكين لهذا الدين ، أن يستغل كل ما فى وسعه مادياً فيتحرك

(1) رواه البخارى : 2/ 591.

بدعوته إلى أقصى مكان يستطيعه ، ويستغل نعمه سبحانه فكرياً فيحرك ذهنه إلى أقصى تفكير يخدم به دعوته وحركته .

ثالثاً : تطوى أحداث القصة مشهد المعركة والنصر والغلبة على هذه الأمة ، وتصل إلى مرحلة مهمة ، وهى بيت القصيد ، أو هى محور القصة ، وهى مرحلة التمكين ، وسلوكيات الفاتحين الربانيين أثناءها .

وهى مرحلة التحدى الفكرى ، والأخلاقى .

رابعاً : كان أول سلوك برز فى سيرة (ذى القرنين)، بعد النصر والتمكين ، أنه استخار ربه فى أمر هؤلاء المغلوبين .

وهذا ما يدل على ماهية المرجعية العقدية والفكرية ، التى يستند إليها ذلك المجاهد الربانى ، والفاتح العظيم .

وإنها لأهم الركائز وأعظم المعالم ، وهى ربانية المرجعية .

ولقد كان ذلك أعظم اختبار لقوته المعرفية ، ومصدر التلقى الذى يستقى منه هذه القوة .

وكم من انتكاسات قد أصابت أمتنا المنكوبة ، وذلك لتجاهل أبنائها المرجعية الربانية ، وتسولهم الحلول والأفكار من فُتات موائد الغرب والشرق !!؟؟

خامساً : لقد كان من نتيجة استخارة (ذى القرنين)لربه فى

أمر هؤلاء المغلوبين ، أن الحق سبحانه قد فوضه فى أمرهم فيفعل فيهم ما يراه .

ونستشعر من ذلك ملمحاً تربوياً عظيماً ، وهو من باب أن الله عز وجل قد وضع فيه الثقة ليفعل ما يراه ، على أساس ما يعلمه عنه من إيمان وعلم وعدل .

وهذا ما يبرز لنا بعداً تربوياً عظيماً ، وهو أن التيار الدينى هو المخوَّل من قِبَل الحق سبحانه ، بحمل أمانة الاستخلاف والإعمار وهو مصدر الثقة .

وهنالك بعداً تربوياً آخر ، يعلمنا فيه الحق سبحانه ـ ولله سبحانه المثل الأعلى ـ أن نعطى مساحة من الحرية والحركة والمناورة الفكرية ، لكل من نثق به .

وهو المعلم العظيم الذى يفتح باباً تربوياً رفيعاً ، فى كيفية بناء الذاتية ، والوصول بالفرد إلى مرحلة الإبداع والعطاء الذاتى فيفهم أن لكل مرحلة متغيراتها ، والتى تتطلب المرونة والتجديد والإبداع فى التعامل معها ، مع ضرورة الانضباط بالثوابت ، أى تكون حركته من خلال الإطار أو المنطلق العقيدى الذى نشأ عليه وتربى عليه .

وكما قلنا ، هو بمعنى آخر ، حسن التربية على التوازن بين

الثوابت والمتغيرات ، بين الأصالة والمعاصرة .

سادساً : لقد قسم (ذو القرنين)هذه الأمة إلى قسمين ، على أساس القاعدة الربانية التى لا تخطئ ، وهى قاعدة الإيمان بالله عز وجل وقبول دعوته سبحانه .

وهذا ما يدل على أن الموازين المنهجية التى كان يتعامل بها مع الخلائق هى الموازين الربانية ، موازين السماء .

تلك الموازين التى يجب أن تحدد تصرفات البشر ، خاصة الدعاة إلى الله عز وجل .

فيكون الولاء على أساس الإيمان بالله سبحانه .

وعلى أساس هذه القاعدة ، يكون الوزن الحقيقى للأشياء والأحداث والأشخاص والقيم والاهتمامات والغايات والأفكار .

وهى القاعدة التى يجب أن تكون منطلق التعامل ليس بين الأفراد فقط بل بين الجماعات والأمم أيضاً .

ولخطورة هذا المرتكز كان أحد مواقف العتاب والمؤاخذة القرآنية القليلة للرسول ـ ﷺ ـ، هو حول أهمية ميزان الناس والأشياء والأحداث بموازين السماء الربانية ، وتدبر آيات مطلع (سورة عبس) وكيف أنها نزلت عتاباً للحبيب ـ ﷺ ـ

لمجـرد انشـغـاله عن (عـبـد الله بن مكتـوم) - رضي الله عنه - ، المؤمن البسيط ببعض كبراء قريش المعاندين .

سابعاً : لقد نجح (ذو القرنين) فى مهمته الأخلاقية وكان على قدر المسئولية المخولة إليه من قبله سبحانه ، فكان متلطفاً فى تعامله مع كلتا الفئتين مع هذه الأمة المغلوبة .

ولم يتبطر بالنصر الذى أحرزه ، ولم تنسه شهوة الظهور والغلبة على هذه الأمة ، أحد دعائم منهجه - بعد القوة المعرفية والقوة المادية - وهى القوة الأخلاقية ، حيث كان مثالاً أخلاقياً رفيعاً يُحتذى به .

ونجح فى أول اختبار لقوته الأخلاقية .

وهى من أخطر عقبات أو تحديات مرحلة التمكين .

ولكن . . .

كم من أمم بطرت معيشتها ولم تشكر الحق سبحانه ، واهب النعم ؟!

وكم من أمم ظلمت حينما ظهرت ومُكِّن لها ؟!

وكم من تيارات انقلبت على مؤيديها ، وليس على أعدائها فقط ، وذلك عندما علا نجمها؟!

وكم من أفراد يتعالون ببعض الإنجازات ، ويستقلون إنجازات الآخرين؟!

بل قد تصل إلى حد السخرية من الأشخاص أنفسهم ، وتغلف بعملية التقييم التربوى!!!

وكم من أفراد يتبطرون بامتلاك بعض النعم ، وينسون الواهب سبحانه؟!

فأين من أين؟!!!

أمة ... على الهامش :

ثم كانت رحلة أو جولة (ذى القرنين الثانية)، حيث توجه إلى أقصى الشرق ؛ نحو مطلع الشمس : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ .

لقد ظل (ذو القرنين) على منهجه فى الأخذ بأسباب التمكين فتحرك بجيشه نحو الشرق ، فاتحاً كل البلاد التى فى طريقه ، واستخدم من كل أمة ما يقوى به جيوشه المجاهدة الفاتحة ولما انتهى إلى أقصى مكان يمكن أن يبلغه بشر ، وهو مطلع الشمس ، وجدها تطلع على أمة فقيرة جاهلة ، ليس لهم بناء يكنهم ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس ، وقيل أنهم

كانوا عراة . وكانوا يسكنون الغيران وأكثر معيشتهم من السمك وقيل أنهم كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول الشمس ، أو دخلوا البحر ، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم ، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل .

وبسط (ذو القرنين) لواء حكمه على هذه الأمة الفقيرة الجاهلة المنسية ، والتي يسودها الفقر والجهل والتخلف وشئ من الفوضى ، فأضاء عليهم بنور الله ، وعدل فيهم بعلمه ورأيه .

وأخبر الله عز وجل أنه كان مع هذا الجيش المجاهد الفاتح ، وقائده العظيم وكان يحيط بكل بواطن أمورهم .[1]

وعندما نتدبر هذه الرحلة الجهادية ، ونتأمل سلوك ذلك المجاهد الربانى والفاتح العظيم ، يمكننا أن نخرج ببعض الملامح التربوية ، التى نعتبرها مفاتيح أخرى فى فهم شخصية (ذى القرنين)، وفى فهم توجهات ما يمثله من تيار يحمل الفكرة الربانية ، عندما يظهره الله فى حلبة الصراع الحضارى ، ويواجه تحديات مرحلة التمكين ، مع تلك النوعية من الأمم .

تلك النوعية المنسية ، والتى تعيش على هامش التاريخ ،

---

(1) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ـ طبعة دار المعرفة ـ بيروت ـ 3 / 108 ـ 109 بتصرف .

وفى الظلام خلف ستار الأحداث ؛ وهى الأمة الجاهلة فكرياً والفقيرة مادياً .

ويمكن اعتبار تلك الأمة مثالاً ، لكل أمة تملك نفس الصفات ، وتواجه نفس الظروف الاجتماعية ، فى كل عصر .

والتعامل معها يمثل مرحلة التحدى أو المواجهة الفكرية والمعرفية والمالية والأخلاقية أيضاً .

ومن خلال قراءة هذه الصفحات من ملف سيرة تلك الرحلة الجهادية لذى القرنين ، يمكننا أن نستشعر عدة أمور وملامح تصب كلها فى خانة الأدب الرفيع لسلوك المستخلفين الربانيين .

وهى أيضاً ، مجرد قراءة منهجية نتلمس بها سلوك ذلك المجاهد الربانى والفاتح العظيم ، مع هذا التحدى ؟!

وكيف أنه كان فى هذا الموقف يمثل موقف الجيل الربانى عندما يُمكَّن له ، ويواجه تحديات مرحلة التمكين مع هذه النوعية من الأمم ؟!

أولاً : لقد بادر (ذو القرنين)بالتحرك من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، ولم يتوقف عند مرحلة معينة بل استغل الأسباب المستجدة ، واستمر فى عملية التطوير الذاتى ، والتنمية الفكرية والمادية والعسكرية .

وذلك لامتلاكة العقلية التجديدية ، والمنهجية الإبداعية .

وكذلك لقناعة هذا النوع من المجاهدين الربانيين ، بأن فى الحركة بركة ، لأنه يدرك كم للحركة من فوائد تربوية وتنموية وفقهية ، فالعلم والتربية والفقه لا يأتون لقاعد ، بل هم من نصيب المتحركين الإيجابيين .

والحركة هى التى تصنع الفقه ، وتجلب المعرفة ، وتعين على التطور والنماء .

إن الله عز وجل لا يهب نعمة الفقه فى هذا المنهج ـ أى الفهم العميق لآيات الله وسننه فى الكون والحياة والمجتمع ـ إلا الإيجابيين المتحركين الذين يدركون (أن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا فى أرض الحركة . ولا يؤخذ من فقيه قاعد حيث تجب الحركة ففى الآية : ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾[1] . ترجح أن المؤمنين لاينفروا كافة ، ولكن تنفر من كل طائفة ـ على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون ـ لتتفقه هذه الطائفة فى الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم ، بما رأته وفقهته من هذا

(1) التوبة :122.

الدين فى أثناء الجهاد والحركة . ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن ، من أن المتخلفين عن الغزو والجهاد والحركة ، هم الذين يتفرغون للتفقه فى الدين ! ولكن هذا وهم ، لا يتفق مع طبيعة هذا الدين . إن الحركة هى قوام هذا الدين ، ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به ، المجاهدون لتقريره فى واقع الناس المندمجون فى الحركة العملية به) .[1]

وهو من باب أن المسلم يعلم أنه جزء من هذا الوجود الكبير وأن حياته تتميز (بالظاهرة الارتحالية) التى تميز هذا الوجود ، وهى ظاهرة الحركة المستمرة التى لا تعرف التوقف أو الركون . حتى يشاء الحق سبحانه : ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ .[2]

وحتى لا يقع بينهما الاصطدام والتضاد ، وحتى يحدث بينهما التوافق والتناغم ، كان عليه أن يلتزم بمنهج رب العالمين .

ولكى يمن عليه الله عز وجل بفقه هذا المنهج الفريد كان عليه أن يدرك أن تلك المنة لا تأتى إلا بالحركة والإيجابية والجهاد فى سبيله لنشر دعوته سبحانه .

---

(1) فى ظلال القرآن : سيد قطب 11 / 1734 ـ بتصرف .
(2) يس : 38 .

ثانياً : لقد كان تحرك (ذى القرنين) إلى هذا المكان ، وإلى هذه النوعية من الأمم بالذات .

فتدبر كيف سار من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، وذلك بعد سقوط أقوى الأمم وأكثرها ظلماً وجوراً .

وكان فى مقدمة أولوياته أن يبادر بالمسير إلى أفقر الأمم وأجهلها فوراً ، وتكون هى محطته الثانية أو جولته الثانية بعد جولته الأولى مع الأمة القوية الكافرة .

ومن هذا الملمح نستشعر أن اهتمامات هذا الفاتح الربانى ، لم تَكُ محصورة مع نوعية خاصة ، أو مستوى معين من الأمم ، خاصة الأغنياء أو النوعية المتقدمة ، بل كانت تمتد إلى الأمم الأخرى ، خاصة الأمم المنسية الفقيرة والمتخلفة .

فتدبر ذلك وقارن ما يحدث الآن ، من اهتمام بارز بدول العالم المتقدم ، والأمم الغنية ، بل يتعدى هذا الاهتمام إلى حيواناتهم . أما نصيب الدول الفقيرة أو ما يسمونها بدول العالم الثالث ، فحدث ولا حرج !

ثالثاً : لم تذكر آيات القصة ، كيف تعامل (ذو القرنين) مع هذه الأمة .

ولعله من باب أن (ذا القرنين) قد أعلن (من قبل دستوره

فى الحكم ، فلم يتكرر بيانه هنا ، ولا تصرفه فى رحلة المشرق لأنه معروف من قبل ، وقد علم الله كل ما لديه من أفكار واتجاهات)[1]

ولعله أيضاً من باب أننا قد علمنا مقدار التشريف والتقدير والمكانة التى وضعه فيها الحق سبحانه ليتصرف كما يشاء فى أمر الأمة الغربية التى ظهر عليها وغلبها ، فما بالك بأمر هذه الأمة الشرقية المنسية الفقيرة والمعدمة ؟!

وبما أنه نجح فى الاختبار الأول لقوته الأخلاقية ، فهذا من دواعى زيادة الثقة فيما سيفعله مستقبلاً .

وإنه لشرف عظيم وتكريم رفيع لذى القرنين .

رابعاً : كان التعقيب القرآنى الرائع حول جولة (ذى القرنين) الجهادية الشرقية : ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ .

وفيه خبر أن الله عز وجل كان مع المجاهد الربانى ، ومع جيشه الفاتح العظيم ، وكان يحيط بكل بواطن أمورهم .

ونستشعر من هذا التعقيب بعض الملامح التربوية :

(أ) إن مَعيَّة الله عز وجل كانت ترعى هذا الجيش وقائده ،

---

(1) فى ظلال القرآن : سيد قطب 16 / 2292 .

وتحميه وتعينه فى كل لحظة وفى كل سكنة .

وهى من نوع المعية الخاصة ، أو الاختيارية ، أو الشرعية ، التى ترعى وتحمى وتسدد المؤمنين ، البارين فقط .

كما يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1] وكما قال موسى عليه السلام أثناء رحلة المطاردة الفرعونية : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[2] . وهو ما شعر به الحبيب - صلى الله عليه وسلم - أثناء رحلة المطاردة القرشية ، فى رحلة الهجرة ، فقال للصديق - رضي الله عنه - : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[3] .

وهى تختلف عن المعيَّة العامة ، أو الإجبارية أو القدرية ، التى تراقب وتبصر ، وتكون مع كل الخلائق مؤمنهم وكافرهم ، بارهم وفاجرهم .

كما يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[4]

(ب) إن الأمر جد ليس فيه مجال للخواطر ، وليس فيه أى نزعة للمحاباة ، فهو أمر تمكين لدين الله عز وجل ، وأمر حقوق

---

(1) العنكبوت : 69.
(2) الشعراء : 62.
(3) التوبة : 40.
(4) الحديد : 4.

بشر ، ومصائر أمم . وهو أمر نجاح تجربة يظهر فيها نموذج راق ، ومثال رفيع للتيار الدينى الربانى ، ويثبت قدرته على الحكمَ ، ويُرى فيها إمكانياته فى أمانة الاستخلاف وإعمار الأرض .

لهذا كان هذا التسديد الربانى ، وكانت هذه المراقبة الإلهية الجدية ، والرعاية القوية لهذه التجربة العظيمة ، والتى خلدت فى عمق التاريخ البشرى .

لقد صارت مَعلَماً يهتدى به كل من أراد أن يستقى دروساً فى أدب المستخلفين الربانيين ، عندما يمكن لهم ، فيكونوا على مستوى التحدى .

وغدت حجة بالغة ، ترد على كل دعاوى العلمانيين واللادينيين ، وهم يرمون سهام الشبهات ، ضد قدرة التيار الدينى ، فى مواجهة تحديات التمكين .

وبقيت رسالة دائمة وخالدة ، لكل شاك أو متردد ، فى أمر تلك القضية الخطيرة ، وهى أن الحكم لا ينبغى أن يقوم على قاعدة سوى العقيدة الربانية ، وأن السياسة لا يجب أن تنفصل عن الأخلاق .

لأنه فى حالة انفصال الحكم عن العقيدة الربانية ، إنما هو الانحراف والفساد .

وفى حالة انفصال السياسة عن الأخلاق ، إنما هو الظلم البين والدمار الشامل .

وتدبر حالة البشرية اليوم ، ولا ينبئك مثل هذا الوضع المأسوى خبير !

تدبر هذه المراقبة الإلهية ، لذلك الفاتح الربانى وجيشه المجاهد العظيم . وتذكر ذلك الصحب المؤمن الذى خرج يوماً مع الرسول ـ ﷺ ـ من أجل العير ، والأموال ، ولكن الله سبحانه وبرعايته أراد أن يسمو باهتماماتهم إلى العلياء وأن يجعل من موقعتهم ، وهى (غزوة بدر)، فرقاناً ونبراساً ، لكل العاملين فى كل جيل ، إنهم ستار لقدر الله يجرى بهم سننه ويحقق بهم مشيئته : **﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾**[1] وأراد سبحانه بذلك أن يقر ويبين سنة إلهية ثابتة ، وهى : **﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾** .[2]

(ج) وهذه الرعاية الربانية الدائمة ، هى من باب الملاذ ،

---

(1) الأنفال : 7 ، 8 .

(2) البقرة : 249 .

والركن الشديد الذى يلجأ إليه دوماً كل صاحب حق ، فى كل أحواله .

ولقد بينا ، أن من أول المعالم أو الركائز المهمة فى عملية التمكين ، هو التوفيق الإلهى ، أو دور القدرة الإلهية فى هذه العملية التغييرية الحضارية .

وهو الدور الذى يتم من خلال قاعدتين إيمانيتين أساسيتين :

الأولى : أن الفاعل الحقيقى لأحداث التمكين ، هو (الله) سبحانه . وهو ما استشعرناه من مغزى كلمة (مكَّنا له)

الثانية : أن عملية التمكين ، يجريها الحق سبحانه فى دنيا البشر بالطريقة الطبيعية ، وبالتدريج ، وبجهد البشر أنفسهم ، الذين يختارهم الحق سبحانه ، ويصنعهم على عينه ليقوموا بهذه المهمة .

ولقد أوى (ذو القرنين)، إلى هذا الملاذ ، إلى الركن الشديد إلى الله عز وجل ، الذى اختاره لهذه المهمة العصيبة ، ومكن له ووهبه إمكانيات هذه المهمة ، لقد لجأ (ذو القرنين) إليه سبحانه وهو فى أوج قوته ، وأعظم مجده ، وذلك عندما استخاره فى أمر الأمة الغربية المغلوبة .

لذا فإن الحق سبحانه لم يتركه وكان معه أينما سار ، وحيثما

توجه ، فتولاه ، يوجهه ، ويرعاه ، ويسدده ، ويراقبه .

أمة ... فى خطر :

ثم نأتى إلى الرحلة أو الجولة الثالثة لذى القرنين ، وهى رحلته إلى الجهة الشمالية : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ .

لقد أخبر الحق سبحانه أن (ذا القرنين)، استمر فى فتوحاته مستغلاً الوسائل والإمكانيات الجديدة ، والمعطيات المستجدة ، وسار حتى وصل بين السدين وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة أو هى منطقة مجهولة بين (حاجزين طبيعيين ، أو بين سدين صناعيين ، تفصلهما فجوة أو ممر . فوجد هنالك قوماً متخلفين وعندما وجدوه فاتحاً قوياً ، وتوسَّموا فيه القدوة والصلاح . عرضوا عليه أن يقيم لهم سداً فى وجه (يأجوج ومأجوج) الذين

يهاجمونهم من وراء الحاجزين ويغيرون عليهم من ذلك الممر ، فيعيثون فى أرضهم فساداً ، ولا يقدرون على دفعهم وصدهم . وذلك فى مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم . وتبعاً للمنهج الصالح الذى أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد فى الأرض فقد رد عليهم عرضهم الذى عرضوه من المال وتطوع بإقامة السد ، ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هى ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين ، فطلب من أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية . فجمعوا له قطع الحديد ، وكوموها فى الفتحة بين الحاجزين ، فأصبحا كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم بينهما ، وأصبح الركام بمساواة القمتين . وقال : انفخوا على النار لتسخين الحديد . حتى إذا جعله ناراً كله لشدة توهجه واحمراره ، قال : آتونى أفرغ عليه نحاساً مذاباً يتخلل الحديد ، ويختلط به فيزيده صلابه . بذلك التحم الحاجزان ، وأغلق الطريق على (يأجوج ومأجوج)ولم يستطيعوا أن يتسوروه ، أوأن ينقبوه وينفذوا منه . وتعذر عليهم أن يهاجموا أولئك القوم الضعاف المتخلفين ، فأمنوا واطمأنوا . ونظر (ذو القرنين) إلى العمل الضخم الذى قام به ، فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم . ولكنه ذكر الله فشكره . ورد إليه العمل الصالح الذى وفقه إليه . وتبرأ من قوته

إلى قوة الله ، وفوض إليه الأمر ، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك يوم القيامة ، فتعود الأرض سطحاً أجرداً مستوياً .[1]

وعندما نتدبر هذه الجولة المظفرة ، والرحلة الجهادية ، لذلك المجاهد الربانى والفاتح العظيم ، ونتأمل سلوكه خلالها يمكننا أن نخرج ببعض الملامح التربوية ، التى تضيف لنا بعض المفاتيح الأخرى ، التى تمكننا من فهم شخصيته ، وفهم توجهات ما يمثله من تيار يحمل الفكرة الربانية ، عندما يظهره الله فى حركة التدافع الحضارى ، ويمكِّن له ، فيواجه تحديات مرحلة التمكين مع تلك النوعية من الأمم .

وهى الأمة القوية مالياً ، ولكنها متخلفة ، وعاجزة حضارياً ومقهورة ، ومغلوبة عسكرياً ، ومبتزة اقتصادياً من غيرها .

ويمكن اعتبار تلك الأمة مثالاً ، لكل أمة تملك نفس الصفات والمقدرات ، وتمر بنفس الظروف الاجتماعية ، وتواجه نفس التحدى الدولى ، وتعانى من نفس الواقع العالمى ، فى كل عصر .

والتعامل مع هذه النوعية من الأمم يمثل مرحلة جديدة من

(1) فى ظلال القرآن : سيد قطب 16 / 2292 ـ 2293 بتصرف .

التحــدى الحضــارى ، أثنــاء مرحـــلة التمـــكين .

أو إن شئت فقل هى مواجهة حضارية ، تحتاج من جيل التمكين إلى قدرات معينة ، وإمكانيات خاصة ، وهى تعتبر ركائز حضارية منوعة ، تشمل القدرة فى الجانب الفكرى ، والمعرفى ، والعلمى ، والتقنى ، بل والأخلاقى أيضاً .

ومن خلال قراءة هذه الصفحات ، من ملف سيرة تلك الرحلة الجهادية العظيمة لذى القرنين ، يمكننا أن نستشعر عدة معالم وسمات من الأدب الرفيع لسلوك المستخلفين الربانيين .

وهى أيضاً ، مجرد قراءة منهجية نتلمس بها سلوك ذلك المجاهد الربانى والفاتح العظيم ، مع هذا التحدى الجديد ؟!

وكيف أنه كان فى هذا الموقف يمثل موقف التيار الدينى ، أو الجيل الربانى المنشود عندما يُمكَّن له ، ويواجه تحديات مرحلة التمكين مع هذه النوعية من الأمم ، وهى تواجه خطراً مزدوجاً .

خارجياً تواجه ذلك الخطر الدولى ، الممثل هنا فى غارات (يأجوج ومأجوج) .

وداخلياً تعانى من أمراض مركبة ، تعود كلها إلى حالة الوهن والتردى والاستنقاع الحضارى ، ألا وهى مرض التخلف المعرفى ، والعجز العسكرى ، والابتزاز والكسل والاتكالية ، والغثائية ، رغم ما تتمتع به من قوة مالية ؟!

المرونة ... وفقه الواقع :

أولاً : نستشعر من تكرار عبارة : ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ . أن هذا الفاتح الربانى ، لم يزل يحمل المنهج الإبداعى ، ولم يزل يملك العقلية المتجددة ، فى التعامل مع متغيرات كل مرحلة .

ولم تزل خطته التنموية والتطويرية لنفسه ولجيشه ، ولأمته مستمرة . وذلك بحسن استغلال السنن الإلهية ، والأخذ بالمستجدات المادية ، والمعطيات الفكرية . ويتعامل مع كل مرحلة من خلال الواقع المحلى ، وحسب الظروف العالمية .

وكل هذه المرونة الحركية ، لا تخرجه عن ثوابته الإيمانية ، وقواعده العقيدية ، ومرتكزاته الأخلاقية .

وفى هذا درس لأصحاب العقليات المتحجرة والنفوس الصدأة ، الذين يريدون أن يواجهوا الواقع المتغير بعقلية الأمس ويريدون أن يستقرأوا المستجدات برؤى تاريخية بالية !؟

ولأمر ما قص علينا الحق سبحانه أمر أولئك الصحب المؤمن وهم (أصحاب الكهف)، عندما وقعوا فى هذا الفخ المعرفى ، فلم يدرسوا الواقع المحيط ، ولم يعوا الظروف المستجدة ، وذلك عندما بادروا بأخطر حركة أثناء تجربتهم التغييرية ، حيث أرسلوا صاحبهم ، فى حذر وتكتم شديدين ، لإحضار الطعام لهم وكان يدور فى خلده أنه ما غاب عن المدينة إلا يوماً واحداً . ولم

يمنعه ذلك التغيير الذى طرأ على الزمان ، والمكان والبشر ، ولم يلاحظة ! ، ومن ثم فقد عمد بنقوده الفضية إلى رجل ممن يبيعون الطعام ، فقبلها الرجل ، واستغربها ، لقدمها ، وظن أن صاحبه قد عثر على كنز تاريخى عظيم ، ونشر هذا الخبر بين جيرانه حتى وصل الخبر إلى الملك ، وانكشف سر الفتية المؤمنين !

وإن كانت هذه الحركة مقدرة عند الله عز وجل لحكمة لا نعلمها ، ولكننا نستشعر بعدها التربوى ، وهى أنها مثال للحركة غير المدروسة !؟

وهو الملمح الطيب الذى يبرز لنا أهمية فقه الواقع ، ودراسة الظروف المستجدة ، ومعرفة واقع الحركة الخارجى ، أو البعد الخارجى للدعوة . ويبين لنا أهمية مواجهة الواقع بأسلحته الحديثة ، لا بأساليب بالية ، قد يُتهم من يحملها - وهو المخطئ - بالرجعية والتخلف ، والظلامية ، وأنه آت من الكهوف . وكذلك الاهتمام بمعاصرة خطاب الدعوة الإعلامى .

كل هذا من خلال المحافظة على ثوابت المنهج والموازنة ، والترجيح بين متغيراته . والتوازن بين أصالة الفكرة ، ومعاصرة عرضها ، وهو توازن الجمع بين الثبات على الأصول والأهداف والمرونة فى الأساليب والوسائل .

أهمية فقه الأولويات :

ثانياً : لقد تحرك (ذو القرنين) فى هذه المرحلة الجهادية الثالثة إلى الوسط بين الشرق والغرب ، أو إلى الشمال . وكانت محطته الثالثة ؛ هى هذه الأمة بالذات .

ففى المحطة الأولى الغربية ، كانت من الضرورة بمكان أن يبدأ بكسر شوكة الكفر والجور والظلم ، من على وجه الأرض .

وفى المحطة الثانية الشرقية ، كان أولويات المرحلة ؛ أن يبادر برفع المعاناة عن الفقراء ، ويتذكر الأمم المنسية .

ثم كانت محطته الثالثة الوسطى ، وهى علاج مشكلة التحديات الخارجية ، وعلاج مرض الوهن والتردى وإن شئت فقل مرض الإستنقاع الحضارى .

إن هذه الجولة الثالثة ـ كما سنرى ـ هى من أخطر جولاته ،، وأعظمها تحدياً وأشدها مسئولية، فهى عملية بعث لأمة تعانى من أمراض الوهن والتردى الحضارى ؛ وهى عملية تغييرية تحتاج للقيادة الواعية التى تضع عينيها على الداء ومصادره ، ثم تتعامل مع المرض بحلول واقعية ، وإمكانيات ذاتية ، غير مهملة للشرط المهم وهو حسن التوافق مع سننه سبحانه الإلهية فى الخلق ؛ وهى السنن الإلهية الإجتماعية .

وهذا ما يبين لنا مفتاحاً مهماً من مفاتيح شخصية هذا المجاهد العظيم ، وأنه كان يتميز بالحكمة فى مراعاته لسلم الأولويات فى حركته الجهادية العالمية المظفرة .

وكم من تحركات ، فى كل المجالات ، ولا نقول عالمية فقط بل وداخلية أيضاً ، إما أنها عفوية ، وردود أفعال ، أو أنها تفتقد إلى هذا الجانب المهم !؟

ظاهرة الإنغلاق على الذات :

ثالثاً : لقد كان أول ملاحظة وجدها (ذو القرنين) ، على هؤلاء القوم ؛ وهى أول عرض لحالة الإستنقاع الحضارى ؛ أنهم لا يكادون يفقهون قولاً .

وهو وصف مقبول من الوجهين ، سواء ما ورد فى قراءة الجمهور لكلمة يفقهون : (يَفْقَهُون) . أى لا يعرفون لغة غيرهم ولا يفقهون قولهم .

أو ما ورد فى قراءة حمزة والكسائى لكلمة يفقهون : (يُفْقَهون) ، أى لا يستطيعون إفهام غيرهم لغتهم وقولهم .

وهذا ما يدل على أنهم قوم متوغلون فى البداوة ، والبلاهة .

ورغم ذلك إستطاع تراجمة (ذى القرنين)، أن يفهموا مقصدهم ، ويقيمون معهم حواراً مطولاً !؟

ومن هنا يتبين لنا أمرين :

الأمر الأول : هو أن أول صفة من الصفات المرضية لهذه الأمة ؛ هى التخلف المعرفى ، والتردى الفكرى والثقافى .

وهى الظاهرة المعرفية المرضية ، التى تصيب أى أمة ، ـ وكذلك أى فرد ـ كنتيجة لحالة مناخية إجتماعية يسودها الإنغلاق المعرفى ، والتقوقع الفكرى ، والتحوصل الثقافى ؛ وهى ما يعرف **(بظاهرة الإنغلاق على الذات)**

الأمر الآخر : هو مدى التقدم المعرفى والفكرى والثقافى لذى القرنين ؛ وكيف كان يسود مملكته حالة من الإنفتاح المعرفى والحرية الفكرية ، والإنتعاش الثقافى .

وهو الملمح الطيب ، الذى يفتح أبواباً كثيرة أمام كل من يستقرىء هذه السيرة الطيبة ، وذلك حول ضرورة وجود المناخ الإجتماعى الحر ، وأهمية الحرية الثقافية ، والإنفتاح المعرفى والثقافى عموماً ، وأهمية اللغة خصوصاً ؛ فهى مفتاح التخاطب وحبل الصلة بين الشعوب .

وحول أهمية هذا المعلم ؛ ألا وهو أهمية وجود الحالة المناخية الإجتماعية التى يسودها الحرية الفكرية والإنفتاح الثقافى خاصة لأجيال مرحلة التمكين ، وحتى يتحقق أهم الغايات ؛ وهو نشر دعوة الله ، فإن الباب لإنجاز هذه الغاية ؛ هو الحرية .

لأن الأمر كما يقول ابن خلدون ـ رحمه الله ـ فى مقدمته (فى أن المغلوب مولع أبداً بالإقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحِلْته وسائر أخواله وعوائده)

لذلك كان على الغالب أن يكون فى مستوى العطاء المعرفى والتأثير الثقافى .

ويسخِّر (**ظاهرة الضغط الحضارى**) فى صالحه .

وهذه الظاهرة الحضارية ، هى سننه سبحانه الإلهية ؛ وتحدث فى (وجود حضارة ضاغطة ، ومجتمع مضغوط ، وميل حضارى (**GRADIENT**) ، وكما هى عادة الظواهر الطبيعية كلها ، عندما يوجد ميل فى أى خاصية من خواص النظام الطبيعى ، فإن ذلك يحدث تدفقاً طبيعياً من الجهة التى تعلو فيها هذه الخاصية إلى الجهة التى تتدنى فيها ، كما يحدث بالمقارنة بين الظاهرة الحرارية الطبيعية ، والأخرى الحضارية

الاجتماعية . فنعلم أن ظاهرة الانتقال الحرارى تتم من وسط ذى حرارة مرتفعة ، إلى وسط أقل منه حرارة ، عند توفر ميل حرارى ، ويكون الانتقال إما بالتوصيل أو بالحمل أو بالإشعاع ، وكذلك الظاهرة الحضارية ، وطرق انتقالها ، من مجتمع متقدم ذى حضارة باهرة ، مسيطرة ، إلى مجتمع متخلف اتكالى ، يعيش عالة على منتجات ، وأفكار وعادات وأشياء الحضارة المسيطرة عليه بنظمها الحاكمة ؟! (1)

داء العجز العسكرى :

رابعاً : كان أول طلب لهؤلاءالقوم ، أنهم سألوا (ذا القرنين) أن يقيهم من فساد (يأجوج ومأجوج) .

وقد قيل أن هؤلاء القوم ، كانوا فى منقطع (بلاد الترك)، وكانوا قوماً ضعاف وصالحين ، وأنهم من قبائل بلاد الصين ، وأن هؤلاء القوم المفسدين ، هم (المغول والتتر). (2)

وهو الملمح الذى نستشعر منه أمرين :

الأمر الأول : أن هذه الأمة تعانى من مرض آخر ، من

---

(1) دراسة فى البناء الحضارى ـ محنة المسلم مع حضارة عصره : د. محمود محمد سفر ـ كتاب الأمة ـ رجب 1409هـ ـ 26 ـ 28 بتصرف .

(2) تفسير التحرير والتنوير : محمد الطاهر بن عاشور 16 / 32 ـ 33 بتصرف .

أمراض التردى الحضارى ، وهو الضعف أو العجز العسكرى . الأمر الذى جعلهم فى خطر خارجى دولى دائم .

بل وأصبحوا ألعوبة فى أيدى الغزاة .

الأمر الثانى : أنهم توسَّموا العدل والقوة والصلاح فى (ذى القرنين)، أو أن شهرة (ذى القرنين) المادية والعسكرية ، وسمعته الأخلاقية قد تعدت المحلية وعرفت عالمياً ، حتى اشتهر اسمه فى البلاد المتخلفة معرفياً ، والعاجزة فكرياً وثقافياً .

وهو ما يوضح أن سمعة (ذى القرنين) سواء فى الجانب العسكرى ، أو فى الجانب الأخلاقى ، ما كانت لتصل إلى هذه الدرجة إلا من خلال الأخبار التى تناقلت أنباء رحلتيه السابقتين حيث اختبر فيهما جوانب قوته مادياً ، وعسكرياً وأخلاقياً .

خطر الغثائية :

خامساً : لقد عرضوا على (ذى القرنين) ، فى مبادرة غريبة أن يجمعوا له خرجاً ، وهو الجُعل من المال ليستعين به فى الأمر الذى طلبوه .

وهذا ما يدل على واحد من أخطر الصفات المرضية الأخرى التى تفشت فى هذه الأمة .

فبرغم معرفتهم بصلاح وعدل وأخلاقيات (ذى القرنين)

وجيشه ، فلقد عرضوا عليه هذا المال ، مما يدل على أنهم (قوم اتكاليون كسالى ، لا يريدون أن يبذلوا جهداً ولا أن يقوموا بعمل ولذلك أحالوا المشكلة على (ذى القرنين)، وأوكلوا إليه حلها ، أما هم فمستعدون لدفع المال . إن هؤلاء القوم يملكون سمات وصفات الأقوام العجزة المتخلفين الاتكاليين ، الذين يعجزون عن حل مشكلاتهم ، ويوكلونها للآخرين الأجانب)[1]

وقد يكون من طول مكثهم تحت خطر وإفساد (يأجوج ومأجوج)، قد أصيبوا بأمراض الوهن والتردى الحضارى ، ومن أبرزها أنهم استمرأوا حالة الابتزاز المالى والاقتصادى ، حتى ظنوا أنهم بمالهم يستطيعوا أن يستميلوا الآخرين ، دون جهد منهم .

وكان من نتيجة ذلك أنهم فى حالة مرضية من الكسل والاتكالية .

وإن شئت فقل هو مرض الغثائية !

ونستشعر من ذلك أمراً مهماً ، هو أن هذه الأمة ما كانت تتعرض لهذا الخطر الخارجى لولا عجزها واعتمادها على المال ،

---

(1) مع قصص السابقين فى القرآن : د . صلاح الخالدى - طبعة دار القلم - دمشق 2 / 338

والمال فقط فى حل مشكلاتها ، مما جعلها فى حالة من القابلية للابتزاز والخطر الدائم ، وكما يقول (مالك بن نبى) رحمه الله حول حقيقة أن الشعوب لم تكُ لتستعمر إلا لوجودها على حالة من القابلية لهذا الاستعمار .

وهذا هو الخطر المريع ؛ والذى يكون مصدره هو عاملين لا ثالث لهما :

الأمر الأول : هو إما التثاقل عن دخول حلبة التدافع والصراع الحضارى مع هذه الأمة المفسدة ، والركون إلى هذا الوضع المأسوى ، وذلك كنتيجة لوصولهم إلى مرحلة من الخور الداخلى ، والهزيمة النفسية .

الأمر الآخر : هو أنهم أرادوا دخول هذه الحلبة التدافعية الحضارية ، وهم فى حالة من عدم التكافؤ الفكرى والمعرفى ، بين مغلوب جاهل يريد أن يصارع غالب يعلم عنه كل شئ !؟

وهذا هو مكمن الخطر عند الأفراد والجماعات والأمم .

فعندما تصل الأمة إلى هذه الحالة ، تصبح كالريشة فى مهب رياح الغزو الفكرى والثقافى ، دون دفاعات داخلية ذاتية من الحصانة المعرفية .

ولو تدبرت حالة أمتنا فإنك تستعجب من محاولات البعض من أبنائها ، لإجهاض كل محاولات خروج أمتهم من حالة الارتهان المعرفى .

فإنا تقول إن ذلك يحدث منهم إما بحسن نية ، وذلك عن جهل ، سببه الغيبوبة عن محاولات استدعاء المخزون المعرفى من مصادره الأمينة وهى كتاب الله العزيز وسنته - ﷺ -.

أو بسبب الجهل عن حقيقتهم ووضعهم كأداة وعامل هدم . (إن الاستعمار لا يتصرف فى طاقتنا الاجتماعية إلا لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة ، وأدرك منها مواطن الضعف ، فسخرنا لما يريد ، كصواريخ موجهة يصيب بها من يشاء ، فنحن لا نتصور إلى أى حد يحتال لكى يجعل منا أبواقاً يتحدث فيها ، وأقلاماً يكتب بها ، وإنه يسخرنا وأقلامنا لأغراضه ، يسخرنا له ، بعلمه وجهلنا)[1] أو تكون محاولاتهم تلك عن سوء نية مبيتة ، فإلى الله المشتكى .

اليد العليا :

سادساً : كان (ذو القرنين) عظيماً عندما رفض هذا العرض الغريب و ﴿ **قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ** ﴾ لقد زهد وعَفّ عن هذا العرض وقال : إن الله سبحانه قد وهب له من القوة والملك وأسباب التمكين والعزة ، مما جعله أعلى من أن تستميله هدية أو أن تضعف نفسه أمام أى رشوة .

وهو نفس موقف سليمان - عليه السلام - عندما نظر إلى رسل

(1) شروط النهضة : مالك بن نبى - طبعة دار الفكر - دمشق 155 .

ملكة سبأ وهم يحملون إليه هدية ملكتهم و ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (1)

وهو الملمح الذى يبين صفة أخلاقية أخرى من صفات (ذى القرنين) ، ألا وهى الاستعلاء ، والعفة والزهد .

وهو الدرس الذى يتعلم منه هؤلاء القوم ، مدى الفرق بينه وبين الآخرين .

فاليد العليا دوماً خير من اليد السفلى .

وتأمل كيف أن العفة والزهد عما بأيدى البشر ، من السمات التى تبرز فى نوعيات بشرية معينة ، فتبقى معلماً يُعرفوا به ، وعلامة تميزهم عن غيرهم . ولك فى قولة ذلك المؤمن ، عندما جاء من أقصى المدينة يسعى ، مبيناً لقومه أبرز صفات أولئك الدعاة ، الذين جاءوا لهدايتهم ولكنهم ـ وكما هى سننه سبحانه مع أهل الحق فى كل عصر ـ حاربوهم ، لقد قال لهم : ﴿ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (2)

أهمية التقدم التقنى :

سابعاً : لقد بادر (ذو القرنين) بالحل السريع لحالتهم المتردية وقال : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ . حيث تطوع بإقامة السد ، وقد رأى أن أيسر طريقة لإقامته هى ردم الممر بين

---

(1) النمل : 36 . (2) يس : 21.

الحاجزين الطبيعيين ، فطلب من أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتـــهم الماديـــة والعضلـــية .

ومن هنا يمكننا أن نضع أيدينا على مفتاح آخر من شخصية ذلك الفاتح الربانى ؛ وهو من باب القوة المعرفية ، وهى أحد الدعامات الثلاث ، التى يستند إليها فى منهجه الإعمارى ؛ حيث تأتى من بعدها القوة المادية ، والقوة الأخلاقية .

وهو استعداده لإيجاد الحل لكل مشكلة ، والتصرف الراشد حيال كل قضية تواجهه .

وكأنه يحمل المنهج الجاهز ، لكل آلام البشرية ، ولكل أمراض الأمم .

فهو ليس من حملة الشعارات البراقة الجوفاء ، بل يملك المنهج البين الراشد .

لقد عرض الخطة العامة ، وهى بناء السد على هيئة ردم ما بين الحاجزين .

ثم كان رؤيته الحضارية لتفاصيل الخطة ، وكيف سيستغل المواد الأولية من حديد ونحاس ونار ، وهى تفاصيل ذلك المنهج الإعمارى .

بل ورؤيته المتقدمة تقنياً ، فى استغلال سبيكة الحديد مع

النحاس ، لتكون أقوى فى بناء السد ، وهو ما عُرف بعد ذلك من إضافة نسبة من النحاس إلى الحديد لتضاعف قوته ، ومقاومته وصلابته .

فهو لا يملك المنهج الراشد وتفاصيله فقط ، بل وأيضاً يملك المعرفة التقنية المتقدمة .

ركائز النهوض الحضارى :

ثامناً : وهو أخطر ملمح نراه من خلال هذه الجولة ؛ وهى خطة ذى القرنين لبعث هذه الأمة من وهدتها .

ولقد جاءت هذه الخطة النهوضية الحضارية بكل معالمها وركائزها ، حسب السياق القرآنى المبدع ، فى آخر جولات (ذى القرنين) وأطولها فى سياق القصة .

وكأنها لمحة قرآنية معبرة ، تبين أخطر قضايا مرحلة التمكين وهى عملية التغيير والنهوض الحضارى .

ونتلمس منها بعض المعالم ، لورقة عمل منهجية لبعث أى أمة ، تعانى من حالة الإستنقاع والتردى والوهن الحضارى ، بكل عوارضه وأمراضه ، كما لمسناها آنفاً .

وهذه المعالم ؛ أو الركائز التى يجب أن تستند عليها أى حركة تغييرية نهوضية حضارية :

(أ) الركيزة الأولى : إشعال روح التحدى .

وذلك بإيجاد مشروع مصيرى ، أو قضية قومية : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ .

وهذا هو السبيل لتجميع كل فئات وتيارات الأمة ، وذلك من شأنه أن يلملم شعث هذه الأمة المريضة ، فتتجمع كل قواها وتستدعى كل إمكانياتها الذاتية لمواجهة هذا الخطر الخارجى .

ومن خلال هذه الركيزة تتناسى كل فئات الأمة كل مشاكلها الداخلية ، وتضع فى أول سلم أولوياتها هذه القضية المصيرية .

لقد أحسن هذا المجاهد الربانى استغلال هذه القضية القومية وجعلها قضية أمة ، وقضية تحد ، وذلك لتحريك الجميع من حوله ، وطلب مشاركة القوّم ، وحرك هؤلاء الكسالى والاتكاليين ليعملوا معه بقوة .

فهو لن يأتى بالمعجزات ولكن عندما تتحرك الجموع ويتوحد الشارع على قضية واحدة ، ويدورون جميعاً قيادة وأفراداً ، حول محور واحد ، فذلك من شأنه أن يأتى بما يشبه المعجزات ، فى عرف التغييرات الاجتماعية .

وتأمل ما يحدث الآن على رقعة أمتنا المنكوبة ، وكيف تفرقت مشاربها ، فلم تتوحد على قضية واحدة .

إن أهمية وجود القضية المحورية ، لابد منها لإيقاظ الأمة كل الأمة ، ولتكون مشعل يبث الحماسة ، وعامل يحرك مشاعر الجميع سواء الفرد أو الأمة .

ولكن المشكلة هى وجود القضية أو الفكرة ، التى توحد اهتمامات الأمة ، وتحرك جماهير الشارع .

ولقد حاول المخلصون مراراً أن يوجدوا المشروع الذى يجمع شمل الأمة ، أو ما يسمى بالقضية القومية التى تشعل حماس أبناء الأمة ، أو الوطن الواحد بمختلف طوائفه الدينية والحزبية ، حتى وإن تباينت أفكارهم ، ولكن دون جدوى؟!

وللأسف فإن أمة لا يجمعها قضية خطيرة ومصيرية ، ألا وهى ضياع أول قبلتيها ، ومعراج رسولها الخاتم - ﷺ - وموطن مقدسات كل الرسالات السماوية ، فلن تجمعها قضايا أخرى!

وللأسف أيضاً أن يغفل أبناء المشروع الحضارى الإسلامى ، عن هذه القضية التى لا يختلف عليها اثنان ، لتعبئة الأمة حولهم ولتوجيه الأنظار للخطر المحدق بالجميع ، ومن أجل مناهضة المشروع الصهيونى الغربى ، الذى يهدد كل الأمة .

(ب) الركيزة الثانية : استغلال العنصر البشرى ، وهو الإنســـــان .

لأن كل التغييرات الحضارية لا تقوم إلا من خلال هذا العنصر المهم . وتدبر كيف أوجد (ذو القرنين) الفاعلية لهذا العنصر فى توجيهاته المستمرة ، وطريقته المشجعة حيث نادى : " فأعينونى بقوة " . و " آتونى " . و " انفخوا " . و " آتونى " ثانية .

ومما لا شك فيه أن أى عملية نهضوية حضارية ، إنما تنبع من قلب إنسان ، من قلب فرد ، يؤمن بفكرة معينة ، فيتحرك بها ويبدأ فى تجميع الأفراد من حوله ، ويحولهم إلى التغيير المأمول .

ولك فى سيرته ـ ﷺ ـ وفى سيرة كل الأنبياء والمصلحين والدعاة فى كل عصر وفى كل جيل ، الغناء .

(ج) **الركيزة الثالثة** : الاعتماد على الذات .

لقد نبذ (ذو القرنين) كل الحلول المستوردة ، واستغل الإمكانيات المحلية ، والمواد الأولية المتوفرة .

وذلك من خلال توجيهاته للأفراد أن يجمعوا الحديد ، والنحاس : ﴿ **آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا** ﴾ وهى مواد أولية متوفرة فى كل مكان ، وتحت أى أرض ، ولكن المشكلة فى كيفية استغلالها ، بل وحسن استغلالها تقنياً .

وكم من أفراد بل وأمم وجماعات ، تملك الكثير ، ولكنها تغفل عن طريقة استغلالها .

والفرق بين ناجح وفاشل سواء فرد أو أمة هو حسن استغلال ما هو متوفر لديه ومغفول عنه !؟ . سواء الصحة أو الوقت أو أى إمكانيات أخرى ، وتدبر قوله - ﷺ - : " **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ** " (1)

(د) **الركيزة الرابعة : واقعية المشروع الحضارى ، وصلاحيته وقوته .**

﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ .

فالمشروع أو العمل البنائى الذى اقترحه (ذو القرنين) بدأ بحركة الأفراد ، لتجميع مواد موجودة ، من حديد ونحاس ، ونار ، أى حلول واقعية غير مستوردة .

وهى مجرد عملية ردم ما بين الحاجزين ، فى عملية ليس فيها غرابة بل وصالحة لدرأ الخطر .

---

(1) رواه البخارى ومسلم

وكانت من القوة بحيث استعصت على الهدم أو الزوال .

وكم من تحركات لا تؤتى ثمارها إما لعدم واقعيتها ، فهى مجرد أحلام . أو لعدم صلاحيتها ، لغربتها عن أرضها ، واستيرادها من بيئات غريبة ، فتبقى كالنبت الشيطانى . أو لعدم قوتها ، فتكون كالبناء الهش الذى لا يستطيع مواجهة التغييرات !؟

(هـ) **الركيزة الخامسة : مراعاة عامل الوقت .**

وتدبر كيف تمت عملية البناء ، فى مراحلها المختلفة ، من تجميع الأمة ، وتجميع المواد الأولية ، وتكويم هذا الردم ، وإشعال النار والنفخ فيها ، بالوسائل المختلفة .

ورغم ذلك لم تذكر الآيات موقف الأمة المفسدة ، وهى (يأجوج ومأجوج)، أثناء هذه العملية ، ويمكننا أن نستشعر البعد التربوى فى ذلك ؛ وكأن هؤلاء المفسدون قد فوجئوا بهذا البناء القوى العظيم .

ونحن لا نقول أن كل التغيرات الحضارية يجب أن تتم فى الخفاء ، ولكننا نذكر فقط بأهمية الوقت فى حياة الأمم والأفراد .

(و) الركيزة السادسة : أهمية وجود الفكرة الربانية .

وهى الركيزة الرئيسية ، فى مشروع (ذى القرنين)

الحضارى ، ونستشعرها من خلال تدبرنا ، كيف أن هذه الأمة قد ارتضت (ذا القرنين) قائداً وموجهاً وهم يعرفون اتجاهاته ومنطلقاته الربانية ، وذلك فى البداية .

ثم ما نستشعره فى النهاية وبعد بناء السد العظيم ، وذلك فى قولة ذى القرنين : ﴿ **قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا** ﴾ فقد كانت وقفة ربانية عظيمة من رجل ربانى ، وذلك بعد أن أتم مشروعه العظيم ، ورأى الناس إيجابيات هذا العمل وثماره ، حيث تعذر على (يأجوج ومأجوج)، أن يهاجموا أولئك القوم الضعاف المتخلفين . فأمنوا واطمأنوا . ونظر (ذو القرنين) إلى العمل الضخم الذى قام به ، فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم . ولكنه ذكر الله فشكره . ورد إليه العمل الصالح الذى وفقه إليه . وتبرأ من قوته إلى قوة الله ، وفوض إليه الأمر ، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك يوم القيامة ، فتعود الأرض سطحاً أجرداً مستوياً .

هكذا رد كل شئ إلى الفكرة التى تحركه ، وإلى المنطلق الذى ينطلق منه ، وهى الفكرة الربانية ،أى الإيمان بالله وحده .

وهنا ومن خلال تلك القمة الربانية ، يستطيع كل داع إلى الخير أن يستغل المناسبة ، فيكسب القلوب ، ويكون لكلامه الثمرة العظيمة .

وهنا أيضاً نُذكر بأمر مهم ، وهو أهمية ووظيفة الأفكار فى بناء الحضارة الإنسانية .

أن أية أمة من الأمم لابد أن تنطلق فى دربها الحضارى من مجموعة من الأفكار . وسلوك الأفراد فى مجتمع من المجتمعات ما هو إلا الترجمة العملية لما يؤمنون به من أفكار .

والبداية ، هى أن تنبعث فكرة عظيمة ، من قلب رجل عظيم ، فيتحرك بها ، ويحرك بها غيره .

وهذه هى سنة الله عز وجل ، فى نشوء الأعمال العظيمة ، بل وفى بناء الحضارات الإنسانية . وهو دور الفكرة والمنهج ، فى التغيير الحضارى ، وناموسية الحركة التاريخية . فالأفكار لها أهميتها ، ووظيفتها الحتمية فى بناء الحضارة الإنسانية .

ومقياس نضج المجتمعات ـ بل والأفراد ـ هو قيمة ما يحملونه من أفكار ، والمجتمع المتخلف ليس موسوماً حتماً بنقص الوسائل المادية أو الأشياء ، وإنما بافتقار للأفكار . والحضارة نتاج فكرة جوهرية تدفع بها فى التاريخ .

وبمعنى آخر ـ ولن نمل التكرار ـ فالمسألة ليست مسألة وسائل وإنما مسألة مناهج وأفكار .

وأن التحول النفسى عند الأفراد والأمم ، يسبق التحول

الاجتماعى ، لأن العامل النفسى يسبق العامل الاجتماعى ويتحكم به ، كما تقره الآية الكريمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1]

وهذا التحول النفسى ، لا ينشأ إلا من خلال فكرة أو مبدأ .

إذن فسلسلة التحولات الحضارية ، إنما تبدأ من فكرة أو مبدأ و الذى بدوره يُنشئ تحولاً نفسياً . وهذا بدوره يُنشئ دافعاً ، فيؤدى إلى سلوك ، والسلوك بدوره ينتج تحولاً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً .[2]

لذا فإننا ومن خلال تدبرنا لكتابات وبحوث المهتمين بالدورات الحضارية ، نجد أنهم يجتمعون على أهمية الفكرة فى بناء الحضارة ، وخاصة الفكرة الدينية . ونجد أن خلاصة كتاباتهم هى التنبيه والتأكيد على (دور الفكرة الدينية كعامل اجتماعى يؤثر فى توجيه التاريخ . والفكرة الدينية لا تقوم بدورها الاجتماعى إلا بقدر ما تكون متمسكة بقيمتها الغيبية ، أى بقدر ما تكون معبرة عن نظرتنا إلى ما بعد الأشياء الأرضية ،

---

(1) الرعد : 11 .

(2) مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى : مالك بن نبى ـ طبعة دار الفكر ـ 36 ـ 113 ثم 153 ـ 160 بتصرف .

والحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية . والفكرة الدينية هى مركب الحضارة أو العامل الذى يمزج عناصر بناء الحضارة ، وهو العامل المساعد ليتم تفاعل المعادلة الحضارية : حضارة = إنسان + تراب + وقت .[1]

وتدبر دور الفكرة الربانية التى حملها الرسل - عليهم السلام - إلى أقوامهم ، حيث نادى كل منهم : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[2] . فكانت فلاحاً لمن حملوها ، ومن تبعهم بإحسان ، وكانت خسارة لمن رفضوها ووقفوا فى طريقها

سمات جيل التمكين :

تاسعاً : فى هذا المقام لا يسعنا إلا أن نؤكد على أن (ذا القرنين) قد بلغ الأوج فى النضوج العقلى والفكرى والعملى ، فكان مثالاً رفيعاً فى حسن حمل أمانة التكليف والاستخلاف والإعمار .

ولا يسعنا إلا أن نُذكِّر ببعض سماته التى جعلته مثالاً يحتذى به ، وهو مجرد مثال عرضه القرآن الكريم ليدلل على أن الأحق بإعمار الأرض وبحمل أمانة الاستخلاف ، هو ذلك التيار

---

(1) شروط النهضة : مالك بن نبى 12 - 45 بتصرف .
(2) الأعراف 65 ، 73 ، 85 ، 95 .

الربانى الذى يمثله (ذو القرنين) .

ذلك التيار الذى يملك هذه السمات ، وهى نفسها التى ميزت (ذا القرنين) :

(أ) فقه السنن الإلهية .

(ب) حسن استغلال تلك السنن . وهذا لا يأتى إلا من خلال امتلاك العقلية المبدعة الحرة .

(ج) الثبات : فلا يكون سلوكه الإعمارى الأخلاقى مجرد حماسة عارضة أو فورة مؤقتة ، بل ديدناً ثابتاً ، ومنهجاً يميزه .

(د) أن يملك عقلية متجددة ، وحيوية ، قابلة للتطور والنمو . تتعامل مع كل مرحلة بمتغيراتها ، وذلك من خلال تميزه بالإبداع الفكرى والمادى .

(هـ) أن يحمل القناعة الثابتة بفاعلية المجموع : من خلال تعاضد القيادة كقدوة ، وكذلك الأفراد كجنود ، فينتج عن ذلك منظومة إعمارية خيِّرة .

(و) أن يتميز بصفة العدل ، والشعور بآلام الأمة ، كل الأمة ، على مختلف أحوالهم وفئاتهم .

(ز) أن يكون منهجه أو مشروعه الحضارى مرتكزاً على دعائم ثلاثة :

(1) **القوة المعرفية** ، وهى ربانية الفكرة التى ينطلق منها .

(2) **القوة المادية** ، وهى التى تعطية المرونة فى التحرك والمبادرة فى التعامل مع الأحداث حسب ظروفها وحسب الواقع .

(3) **القوة الأخلاقية** ، وهى التى تظلل حركته ، وتصبغ تعاملاته الداخلية ، والخارجية .

(ح) أن يتميز بالعالمية ، من حيث المنهج ، والحركة ، والفقه .

وهذه الملامح التى استشعرناها من مواقف (ذى القرنين) ، إنما كانت تُقعِّد وتبرز أهمية الدور البشرى ، ومعالمه ، بل وخطورته فى عملية التمكين والتداول الحضارى .

و(ذو القرنين) يمثل ذلك التيار الربانى ، الذى سطر فى ملفات التاريخ الناصعة ، وشهد له الواقع بنظافة اليد فى كل جيل .

ولقد رشح الحق سبحانه الجيل الربانى ، لحمل هذا الدور ، ولحمل أمانة الخلافة ، وللقيام بهذه المهمة الحضارية التغييرية النهضوية . فخلده القرآن الكريم إلى قيام الساعة .

وقد جعلها القرآن الكريم سنة إلهية عامة ، وقاعدة عظيمة

تبقى إلى قيام الساعة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (1)

ففى الحياة الدنيا ، على الأرض ، التى لا يملكها إلا الله سبحانه ، قد أعلن الحق سبحانه من هم الأحق بأمانة الاستخلاف ، كقاعدة عظيمة ، وسنة إلهية ثابتة ، كما قال على لسان موسى - عليه السلام - : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (2)

وفى الدار الآخرة ، حيث النعيم المقيم ، نجد أن الله عز وجل قد وعد هذا التيار بالفوز به ، إن أحسن حمل هذه الأمانة وذلك من خلال سنة إلهية عامة ، وقاعدة قرآنية خالدة وثابتة : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (3)

وفى النهاية ...

نستطيع أن نقول أن الأسئلة التى تتردد على لسان البشرية المعذبة ، والتى ذكرناها آنفاً ، وهى :

كيف يبدو المستقبل ؟

---

(1) هود : 49 .

(2) الأعراف : 128 .

(3) القصص : 83 .

ومن هو الذى سيحدد هذا المستقبل ؟

وما هى منطلقاته ؟

وما هى سماته المنشودة ؟

ومن هو الأحق بهذا الدور الاستخلافى الإعمارى فى الأرض ؟

نقول لأولئك المتسائلين ، الذين آلمهم ثقل الواقع ، وكبر فى أنفسهم ظلم الحضارة الغربية الحديثة ، لقد جاءت الإجابات نقية ناصعة ، من خلال قراءة هذه الصفحات من ملف سيرة ذلك الفاتح الربانى والمجاهد العظيم ، (ذى القرنين) .

ورأينا كيف أنه أبرز لنا النموذج الرفيع ، والمثال الراقى للتيار الربانى ، وجيل النصر المنشود ، الذى سيقود أمة الدعوة والرسالة ، إلى القيام بدورها ، وذلك عندما يمر بأخطر المراحل وأشدها مسئولية ، وأعظمها حرجاً ، ألا وهى مرحلة التمكين .

لذا فإنه هو التيار الوحيد المرشح ، تاريخياً وواقعياً وشرعياً لحمل الأمانة ، ولخلافة الله عز وجل فى الأرض .

وتبقى على الجميع ، مسئولية إيجاده ، بأى مشاركة زادت أو قلت سواء عملياً ، أو قولياً ، أو مناصرة .

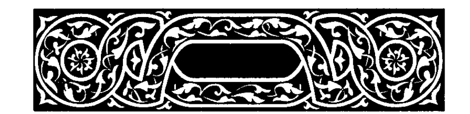
ذلك الجيل الربانى الذى يُجْمل سيرته ، ويُلخِّص صفحات ملفاته كلها ، فى كلمات بسيطة يعلنها للجميع :

ملكنـا فكان العدل منّا سجيةٌ . . فلمـا ملكتـم سـال بالدم أبطُحُ

وحللتم قتل الأسارى وطالما . . غَدونا على الأسرى نمنُّ ونصفَحُ

فحسبكم هـذا التفاوت بيننا . . فكُلُّ إنـاءٍ بالـذى فيـه ينـضَـحُ

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات



الفهرس

مطابع الصقر
ت: ٠١٥/٤١٢٥٥٥ - ٠١٥/٤١٢٧٧٧